الباب الثاني

حرية الاعتقاد

ويشتمل على أربعة فصول:

الفصل الأول: الأديان السماوية متفقة الأصول.

الفصل الثاني: لا تعايش بين الإيمان والإلحاد.

الفصل الثالث: تصنيف الناس في التصور الإسلامي.

الفصل الرابع: أثر التصنيف البشري في الميدان العملي.

obeikandi.com

الباب الثاني: حرية الاعتقاد

بعد أن قررنا أن الإنسان حر لا يجوز أن يتعدى عليه أحد في حريته الشخصية من حيث الأصل، نتساءل هل يدخل في إطار حريته كذلك اختيار ما يعتقده من الأديان السماوية، والمذاهب الأرضية أم لا؟ ثم كيف يصنف الإسلام البشر. وما أثر ذلك التصنيف من الناحية العملية؟ وسنوضح الإجابة عن هذه التساؤلات في أربعة فصول على النحو التالي:

obeikandl.com

الفصل الأول

الأديان السماوية متفقة الأصول ومتكاملة الفصول

اللَّه تبارك وتعالى أرسل رسلاً من أول عهد البشرية، ابتداء من آدم وانتهاء بمحمد ﷺ على الخلاف الموجود في آدم هل كان نبياً ورسولاً أم ليس كذلك؟ وإنما تبتدئ الرسالات من نوح فما بعد، على أن باستطاعتنا أن نوفق بين الرأيين بأن آدم كان معلماً ومرشداً لا محارباً للشرك إذ لم يكن ظهر بعد. وأما نوح فهو أول رسول بعثه اللَّه لمحاربة الشرك والوثنية والالتجاء إلى غير اللَّه تعالى.

وهؤلاء الأنبياء من لدن آدم إلى محمد صلى اللَّه عليهم جميعاً وسلم جاؤوا بدين واحد، لا يختلف أحدهم فيه عما جاء به الآخر، وذلك لأن الدين يشتمل على شقين اثنين. الأول: شق العقيدة والأخلاق، وهو الجانب النظري، والثاني: شق الشريعة والسلوك، وهو الجانب العملي من الدين.

إذن كل دين له نقطة التقاء مع الدين الآخر في شق وهو العقيدة والأخلاق، واختلاف في شق آخر وهو الشريعة والتصرفات.

محل توافق الأديان السماوية:

فالرسل جميعاً اتفقوا على دعوة الناس إلى عبادة اللَّه تعالى وتوحيده، ونبذ ما يعبد من دونه، قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا اللَّه ما لكم من إله غيره﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم

---

(١) الأعراف آية ٥٩.

اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره﴾،(٢) وقال: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره﴾(٣). فهؤلاء الأنبياء جميعاً دعوا قومهم إلى عبادة اللّه وحده الذي لا إله غيره، وفي الحديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٤).

محل تفاوت الأديان السماوية:

لكننا نجد أن هناك أموراً تفصيلية تختلف من شريعة إلى شريعة، فقد تحل اليهودية ما تحرمه النصرانية، وقد يحرم الإسلام ما تحله الطائفتان أو إحداهما، كما قال اللّه تعالى حكاية عن عيسى قوله: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾(٥). يقول ابن العربي في «أحكام القرآن»: بعث اللّه نوحاً بتحريم الأمهات والبنات والأخوات ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الآداب في الديانات، ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل ويتناصر بالأنبياء صلوات اللّه عليهم واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة حتى ختمها اللّه بخير الملل ملتنا على لسان أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ ، فكان المعنى: أوصيناك يا محمد ونوحاً ديناً واحداً، يعني في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة، وهي التوحيد والصلاة والزكاة

---

(١) الأعراف آية ٦٥.

(٢) الأعراف آية ٧٣.

(٣) الأعراف آية ٨٥.

(٤) رواه مالك في «الموطأ» بلاغاً عن النبي ﷺ ، وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره. انظر: «كشف الخفاء» ج١ ص٢٤٤ رقم الحديث ٦٣٨.

(٥) آل عمران آية ٥٠.

obeikandi.com

والصيام والحج والتقرب إلى اللّه بصالح الأعمال، والزلف إليه بما يرد القلب والجارحة إليه، والصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم وتحريم الكفر والقتل والزنى والإيذاء للخلق كيفما تصرفت، والاعتداء على الحيوان كيفما دار، واقتحام الدناءات وما يعود بخرم المروءات، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة لم تختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، وذلك قوله: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾،(١) أي اجعلوه قائماً، يريد دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً من غير خلاف ولا اضطراب، فمن الخلق من وفى بذلك ومنهم من نكث، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، واختلفت الشرائع وراء هذا في معان حسبما أراده الله مما اقتضت المصلحة وأوجبت الحكمة وضعه في الأزمنة على الأمم. اهـ. كعدد الصلوات وعدد الركعات وكيفية الصيام وكيفية الحج ونحو ذلك.

الإسلام لله دين جميع الأنبياء والرسل:

وكل الرسل على دين الإسلام، لأنه الدين الوحيد والأم لكل الشرائع، وأتباعه يسمون بالمسلمين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٢)، وقوله: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٣). وهو يقرر أن أصحاب الدين الصحيح يسمون مسلمين كذلك، فيقول تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾(٤). ويؤكد الله تعالى اتفاق الرسالات على مبدأ واحد واجتماعها على

---

(١) الشورى آية ١٣.

(٢) آل عمران آية ١٩.

(٣) آل عمران آية ٨٥.

(٤) البقرة آية ١٣٣.

obeikandi.com

هدف واحد فيقول: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾[1]. ويقول في موضع آخر: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[2]. ثم يقول في مكان آخر مبيناً حكم من يفرق في الإيمان بين الشرائع والرسالات وبين الرسل والأنبياء، فيحكم عليهم بالكفر الصراح إذ يقول: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾[3].

ثم يقول في حق من آمن بهم ولم يفرق بين ما جاؤوا به، ويحكم عليهم بالإيمان، ويعدهم أجرهم يوم القيامة فيقول: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾.[4]

فالعقيدة في الأديان السماوية أشبه ما تكون بالرأس والجذع والأطراف في أفراد البشر حيث هي متفقة فيهن، والشريعة بمنزلة الأطوال والأعراض والألسن والألوان والمواهب حيث هي مختلفة ومتفاوتة فيهم، والوحي الإلهي في هذه الشرائع بمنزلة الروح في أبدان البشر حيث تسري فيها الحياة، وتدب بواسطتها الحركة، فكلما جاءت شريعة كملت ما قبلها حتى اكتملت الشرائع واختتمت الأديان برسالة محمد ﷺ : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي

(١) الأنعام آية ٩٠.

(٢) الشورى آية ١٣.

(٣) النساء آية ١٥٠ ـ ١٥١.

(٤) النساء آية ١٥٢.

ورضيت لكـم الإسـلام دينـاً﴾[1]. وأصبـح ديـن الإسـلام هـو العقيـدة المعتمـدة والشريعة المقبولة عند ا لله تعالى، فلا يقبل ا لله تعالى التعبد بغيره: ﴿إن الدين عند ا لله الإسلام﴾[2]، ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[3] وكلما كان هناك التزام بهذه الشريعة وعمل بمقتضاها، كان هناك صحة في التصرف وسلامة في السلوك وتكامل في المجتمع وانسجام في الحركة.

وقد ورد في السنة ما يبين أخوة الأنبياء في الدين صريحة عـن النبي ﷺ، حين ذكر عنده عيسى ابن مريم فقال: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيـا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهـاتهم شتى ودينهـم واحـد»[4]. فهـذا مثـل واضح في بيان اتحاد الأنبياء فيمـا أرسـلوا بـه، وأن دعوتهـم واحـدة وإن كـانت أشخاصهم مختلفة، وهم بهـذا كمثـل رجـل لـه نسـوة ذوات عـدد ولهـن أولاد، فهؤلاء الأولاد وإن اختلفت أمهاتهم فإن أباهم واحد، فيجتمع نسـبهم وأصلهـم به. ولعلك تجد الحديث الآخر أكثر وضوحاً وأكمل بياناً في المثـل الـذي يضربـه النبي ﷺ ليصور به حال الأنبياء، وأن دعوتهم يكمـل بعضهـا بعضاً في تناسـق واتحاد إذ يقول: «إن مثلي ومثل الأنبيـاء قبلي، كمثـل رجـل بنـى بيتـاً فأحسـنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولـون هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[5].

---

(١) المائدة آية ٣.

(٢) آل عمران آية ١٩.

(٣) آل عمران آية ٨٥.

(٤) رواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج٢ ص١٨٩ كتاب ذكر الأنبياء وفضلهـم بـاب ذكر عيسى عليه السلام رقم ١٦١٨.

(٥) رواه الترمذي وصححه. راجع: «تحفة الأحوذي» ج٨ ص ١٥٨ عن جابر بن عبد ا لله.

obeikandi.com

فهذا هو الحق البين الصراح الذي يجب أن يعتقده كل مسلم بل كل إنسان يعرف للأنبياء أقدراهم، ويفهم مرادهم لا كما يفعل اليهود والنصارى الذين يتهم بعضهم بعضهم دين بعض، ويحطّ بعضهم من قدر نبي خصومهم، حتى رمى اليهود عيسى بأنه ابن زنى، أقماهم الله وأخزاهم، ورموا لوطاً بالوقوع في ابنتيه بعد أن أسكرتاه، ويتهمون داود باختلاس امرأة أحد أتباعه، إذ أعجبته وأرسل بزوجها إلى الحرب، ليخلو له حب زوجه، وهكذا تفعل الطائفة الأخرى بالأولى.

كما حكى الله لنا في كتابه إذ يقول: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾(١). ولكن الإسلام على خلاف ذلك يأمر بتعظيم الأنبياء، وأنه لم يأت أحد منهم لينقض ما بناه من قبله، إنما ليتمه كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢) ..

وكما في قوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾(٣). فمن يكفر من المسلمين ببعض ويؤمن ببعض فهو مرتد عن الإسلام، ويكون بهذا قد هدم أو أفسد ما بناه أو أصلحه من جوانب أخرى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله

---

(١) البقرة آية ١١٣.

(٢) رواه مالك في «الموطأ» ص٥٦٤ رقم ٨ ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، قال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح، متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره، وله ألفاظ متعددة. انظر: «كشف الخفاء» ج١ ص٢٤٤ رقم ٦٣٨.

(٣) البقرة آية ٢٨٥.

ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾(١).

تحليل ظاهرة الصراع بين الأديان السماوية:

وقد كان يجب أن يتحقق الوفاق التام بين المؤمنين من البشر، لو آمنوا برسل الله تعالى جميعاً دون تفريق بينهم، لأنهم جميعاً يؤيد بعضهم بعضاً، ويكمل بعضهم رسالة بعض، لأن مصدر رسالتهم واحد وهو الله تعالى، ولكن الزعماء الروحيين والزمنيين في كل دين منها يعمدون إلى التشكيك بالأديان الأخرى وبنوايا أهلها، ليبرروا لأتباعهم نصب العداوة والمحاربة للآخرين في الظاهر، ولتبقى لهم القيادة والزعامة على الناس من أتباعهم في الحقيقة، فنشأ عن ذلك صراع مرير بين أتباع هذه الديانات السماوية، أدى إلى استغلال الملحدين لهذه الظاهرة، فراحوا يطالبون بعزل الدين عن الحياة جملة وتفصيلاً، بحجة أنها ورثت الجنس البشري مصائب وويلات كما فعلت الشيوعية، بينما راح البعض الآخر منهم يطالب بعزل الدين عن القيادة، لإقصاء الدين عن التأثير في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية، كما فعلت العلمانية ليحل الإلحاد محل الإيمان في الأرض، وساعدهم على ذلك ما طرأ على الأديان السماوية من تحريف في عقائدها، وتزوير في شرائعها وفساد في أخلاقيتها، مما أدى إلى تدهور خطير في سلوكيات أتباعها(٢).

ولو أن نفوس هذه الزعامات الدينية تخلت عن أطماعها وغاياتها الذاتية ،التي غلفتها بالغيرة الدينية أمام الناس، وصدقت في طلب الحق وسعت للوصول

---

(١) النساء آية ١٣٦.

(٢) وقد فصلنا القول في ذلك في كتابنا: «دور الأديان في حماية الإنسان» وهو قيد الإعداد للطبع.

إليه، لقادها ذلك إلى الحقيقة فآمنت بالإسلام عقيدة وشريعة، لأن مقتضى الإيمان با لله تعالى إذا صح أنه يقود إلى الإيمان برسل ا لله جميعاً، والذين ختموا برسالة محمد ﷺ : ﴿النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾(١).

دعوة صريحة لصالح البشرية في الأرض:

ولهؤلاء الزعماء توجه القرآن بدعوتهم إلى المناقشة الهادئة والهادفة للوصول إلى الحق، كي ينعم الناس بالدين السماوي الذي وضعه ا لله تعالى بعلمه وحكمته لمصلحة البشر، وحمايتهم من عدوهم الأكبر والأخطر وهو الشيطان الرجيم، ولترتفع عن الناس تلك المعاناة الناشئة عن ذلك الصراع بين الأديان، التي أدخلهم فيها الشيطان عبر إيحائه للزعامات الدينية المزيفة بالسعي لحماية شهوة المال والجاه تحت غطاء المحافظة على الدين والغيرة عليه، لتستمر العداوة بين البشر الذين هم أعداء الشيطان، والشيطان عدوهم فقال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاَّ نعبد إلا ا لله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون ا لله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾(٢) .

بهذا تجتمع البشرية على الحق ويسود الأمن والسلام في الأرض، وتفوت الفرصة على الملحدين، فيتعاون المؤمنون با لله تعالى ورسله في مواجهتهم ورد خطرهم عن الناس، الذين يسعون إلى استغلالهم باسم تخليصهم من صراعات الأديان وأهلها.

---

(١) الأعراف آية ١٥٧.

(٢) آل عمران آية ٦٤.

الفصل الثاني

لا تعايش بين الإيمان والإلحاد

لنا بعد هذا أن نقرر: أنه ليس لأحد أن يختار الكفر على الإيمان، وليس لأحد أن يختار الوثنية على التوحيد، بل يجب في حكم الإسلام ونظرته للإنسان أن يكون مؤمناً على ملة محمد خاتم النبيين والمرسلين، باعتبار أن رسالته ناسخة لشرائع ما قبلها من الرسالات السماوية، ومن لم يفعل ذلك فإنه يقاتل حتى يؤمن أو يموت كما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن هم فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[1] . وقد قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[2]. ومن هنا كانت فريضة الجهاد في سبيل الله تعالى لرفع راية الإسلام[3]، وإقامة حكم الله في أرض الله لتكون كلمة الله التي هي الحق والخير والطهر والإرشاد هي العليا، وكلمة الذين كفروا التي هي الباطل والشر والظلم والعدوان هي السفلى، ولحماية الدين والملة من العدو المتربص بها يترقب الفرصة كي ينقض عليها ويجتثها من أصلها، فلذلك أمرنا بأخذ الحذر والإعداد لهم بما في وسعنا من القوة بشتى أنواعها ومختلف أساليبها.

---

(١) رواه البخاري. راجع: «فتح الباري» ج١ ص٧٥ ورواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» ج١ ص٨ كتاب الإيمان رقم الحديث ٥.

(٢) التوبة آية ٢٩.

(٣) الذي يعلنه هو الحاكم وبدونه لا يشرع القتال إلا للدفاع عن النفس.

ولم يكن الجهاد في سبيل الله تعالى انتقاماً من البشر ولا حباً في سفك الدماء وإزهاق الأرواح، ولا رغبة في السيطرة على العباد والبلاد، وإنما شرع الجهاد من أجل إيصال كلمة الحق والخير والطهر والإرشاد إلى الناس، رحمة بهم من التخبط في المتاهات والضياع بين أطباق الزمان والأحداث، لأن شرع الله هو الذي يؤمن للناس حياتهم الكريمة النظيفة المطمئنة التي لا يجدونها في غير شرع الله، لأن الله سبحانه هو الذي خلق البشر، فهو الذي يعلم ما تكن الأنفس وما تحويه الصدور، ويعلم كيف يكون علاج النفوس المريضة التي هي بمثابة معاول الهدم في كيان المجتمع البشري فيفرض من العقاب ما يردعها، ويقضي على شوكتها، فأحرى بالبشرية أن تدين بالدين الذي يصدر عن الله الحكيم الخبير علام الغيوب، وأجدر بها أن تنأى عما يقرره لها المقننون الذين لا يصدر عنهم ـ مهما بذلوا من جهد ـ إلا ما لا يفي بحاجة البشرية ولا يقودها إلى السعادة والأمن، وأعظم دليل على ذلك تلك البلاد المتحضرة الراقية من الناحية العلمية والمدنية، حيث يتعالى فيها الرقم القياسي في الجرائم بشتى أنواعها ومختلف صورها يوماً بعد يوم، مع عظم ودقة ما يستعملون من أجهزة الأمن المختلفة والمتطورة، لكنها لم تجد نفعاً ولم تنشر أمناً، إذن ليس إلا شريعة الله وحده لذلك أوجب الإسلام الجهاد لإيصال هذه الشريعة إلى جميع الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ليأمنوا على دمائهم وليأمنوا على أعراضهم وليأمنوا على أموالهم، وليأمنوا على أنفسهم من الضلال والحيرة والشقاء التي يسعى الشيطان الرجيم إلى إيقاعهم فيها بحكم عدائه للإنسان: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾[1].

---

(١) فاطر آية ٦.

الفصل الثالث

تصنيف الناس في التصور الإسلامي

لابد من الوقوف على تصنيف الناس لكي نعرف من له حق اختيار ما يعتقده، ليقر عليه ممن ليس له ذلك منهم، ليصار إلى اتخاذ الموقف الصحيح منه فنقول:

الناس في المنظور الإسلامي ينقسمون من حيث الاستجابة إلى نداء السماء الأخير وعدم الاستجابة له إلى: منتسبين إلى الإسلام وغير منتسبين إليه، ويسمى الأولون: مؤمنين، ويسمى الآخرون كافرين، كما قال تعالى: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير﴾[1].

فالجنس البشري يشكل دائرتين منفصلتين، يندرج في كل دائرة منهما أنواع مختلفة، لكل نوع منها وصف يترتب عليه أحكام خاصة في التعامل فيما بين أصناف الدائرة الواحدة بعضها مع بعض من جهة، وفيما بين أبناء الدائرتين المنفصلتين بعضهم مع بعض من جهة أخرى.

وإن ذلك التصنيف بمثابة حصن للمؤمنين، يمنع من دخول أمراض المنحرفين السلوكية والأخلاقية والعقائدية من دائرة الكافرين إلى دائرة المؤمنين، ويمنع من تسرب أمراض المنحرفين السلوكية والعملية ضمن دائرة المؤمنين، فيكون من نتيجة ذلك أن يقوى المتقون في دائرة الإيمان، ويقوى المؤمنون في دائرة الجنس البشري العام: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[2] .

وسنعالج هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

---

(١) التغابن آية ٢.

(٢) آل عمران آية ١٣٩.

obeikandi.com

المبحث الأول

أهمية تصنيف الناس

نزل القرآن الكريم بلغة العرب البليغة، وبلسانهم الفصيح: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾(١).

ومعلوم أن لكل لفظة في اللغة دلالتها التي تعكس مراد المتحدث، ليتم التخاطب بواسطتها بين الناس، ويسهل التعامل فيما بينهم، فتسير حركة الحياة على الوجه المطلوب دون عرقلة أو تصادم، فإن إعجام الكلام وغموض ألفاظه، أو تخلفها عن الدلالة على معانيها، يؤدي إلى ارتباك العلاقات بين الناس الناشيء عن عدم فهم بعضهم مراد بعض، وكثيراً ما تنشأ النزاعات العلمية أو العملية بسبب ذلك الغموض في الألفاظ أو في المعاني.

وربما يتم نقل اللفظة من معناها اللغوي إلى معنى اصطلاحي، يتفق عليه طائفة من الناس في مجال من مجالات المعرفة في الميدان النظري أو في الميدان العملي، فيجب عندئذ التعاطي مع هذه اللفظة من خلال ذلك المدلول الاصطلاحي الجديد ليصار إلى التفاهم الصحيح بين الناس.

ومن هذه الألفاظ التي يجب مراعاة مدلولها عند استخدامها، ما ورد في الشرع من أمثال: الإيمان والعصيان والفسوق والنفاق، وكذا الكفر والشرك والإلحاد ونحو ذلك، حيث يجب مراعاتها عند الاستعمال لما لها من تأثير في نفوس الموصوفين بها باعتبار مالها من مدلولات هامة وخطيرة.

---

(١) الشعراء آية ١٩٢ ـ ١٩٥.

وسنعالج الموضوع من ثلاثة جوانب في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

تأثير الأسماء والأوصاف على النفوس في السلوك والأخلاق.

من طبيعة الإنسان أنه يتأثر بما يوصف أو يسمى تأثراً واضحاً، حتى أنه لينعكس على نفسه ويترك أثره في شخصيته سلباً أوإيجاباً، ولذلك فقد حرم الله تعالى السخرية بين المسلمين والتنابز بالألقاب فيما بينهم، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾(١). كما أن رسول الله ﷺ قد أمر بتحسين أسماء الأبناء فقال: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فحسنوا أسماءكم»(٢). وأرشد إلى اختيار أحسنها فقال: «أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن»(٣). وفي رواية: «تسموا بأسماء الأنبياء، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمّام»(٤).

وقد كان ﷺ يغيّر ما لا يليق من أسماء أصحابه، كما قالت عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ: «كان يغيّر الاسم القبيح»(٥). فمن ذلك

(١) الحجرات آية ١١.

(٢) رواه أبو داود وابن حبان في «صحيحه» كلاهما عن عبد الله بن أبي زكريا عنه، وعبد الله ابن أبي زكريا ثقة عابد. انظر: «الترغيب والترهيب» ج٣ ص٦٩ كتاب النكاح باب الترغيب في الأسماء الحسنة رقم الحديث ١.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه. انظر: نفس المصدر رقم الحديث ٢.

(٤) رواه أبو داود والنسائي. انظر: نفس المصدر. رقم الحديث ٣.

(٥) رواه الترمذي، وفي سنده كلام. انظر: «تحفة الأحوذي» ج٨ص١٢٨ كتاب الأدب رقم الحديث ٢٩٩٥.

أن عمر بن الخطاب كانت له ابنة سماها عصية: «فسماها رسول الله ﷺ جميلة»(١). وغير اسم برّة بنت أبي سلمة وسماها زينب بنت أبي سلمة وقال: «لاتزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البرّ منكم»، فقالوا: بم نسميها؟ فقال: «سموها زينب»(٢). لأن مادح نفسه يحمله ذلك على الإعجاب بها وازدراء الآخرين.

وقد غيّر رسول الله ﷺ اسم العاصي وعزير وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب وشهاب، فسماه هشاماً، وسمى حرباً: سلماً، وسمى المضطجع: المنبعث. وأرضاً تسمى عفرة سماها خضرة، وشعب الضلالة سماه: شعب الهدى، وبني الزّنية سماهم: بني الرّشدة، وسمى بني مغوية: بني رشدة(٣) .

أما العاصي فإنما غيره كراهية لمعنى العصيان، وإنما سمة المؤمن الطاعة والاستسلام لله، والعزيز: إنما غيره لأن العزة لله، وشعار العبد الذلة والاستكانة، وعتلة: معناها الشدة والغلظ، ومنه قولهم: رجل عتل أي شديد غليظ، ومن صفة المؤمن اللين والسهولة، وشيطان: اشتقاقه من الشطن: وهو البعد من الخير وهو اسم المارد الخبيث من الجن والإنس، والحكم: هو الحاكم الذي لا يرد حكمه، وهذه صفة لا تليق إلا بالله تعالى ومن أسمائه الحكم، وغراب مأخوذ من الغرب، وهو البعد، ثم هو حيوان خبيث المطعم أباح رسول الله ﷺ قتله في الحل

(١) رواه الترمذي عن ابن عمر، وقال: حديث حسن غريب. انظر «تحفة الأحوذي» ج٨ ص١٢٧. كتاب الأدب، باب ما جاء في تغيير الأسماء وقد أشار المباركفوري إلى أنه رواه أيضاً مسلم وأبو داود وابن ماجه. رقم الحديث ٢٩٩٤.

(٢) رواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج٢ ص١٣٢ كتاب الأدب: باب تسمية برة زينب. رقم الحديث ١٤٠٧.

(٣) انظر: «الترغيب والترهيب» ج٣ ص٧١ كتاب النكاح باب الأسماء التي نهى النبي ﷺ عن التسمية بها. رقم الحديث ٩.

والحرم، وحباب يعني بضم الحاء المهملة وبتخفيف الباء الموحدة: نوع من الحيّات وروي أنه اسم شيطان، والشهاب الشعلة من النار، والنار عقوبة ا لله تعالى، وأما عفرة يعني بفتح العين وكسر الفاء: هي نعت الأرض التي لا تنبت شيئاً، فسماها خضرة على معنى التفاؤل حتى تخضر[1].

وهكذا كان ﷺ يغير الاسم غير اللائق بما هو أفضل منه لما للاسم من تأثير على نفس صاحبه سلباً أو إيجاباً، فيبعث في نفسه الرضا أو السخط، كما أن له تأثيراً على نفوس الآخرين فيبعث في نفوسهم التفاؤل أو التشاؤم.

المطلب الثاني: ضرورة إطلاق الأوصاف على مستحقيها

خلق ا لله تعالى الإنسان مجبولاً على حب الجاه الذي هو مشتق من الوجاهة نسبة إلى الوجه، وهو أكرم ما في بني آدم من أجزاء بدنه، وبه تتم المواجهة والتعارف بين الناس وهو مجمع الحسن فيهم، فيحرص كل أحد من بني آدم على تجميله وتكميله، فالإنسان يرغب في أن يكون حسن السمعة والسيرة بين الناس، كما يجب أن يكون حسن الهيئة والشكل فيهم، وبالتالي فلا يرضى أن يتعرض له أحد بتشويه سمعته بالسب أو بالشتم أو باللعن، كما لا يرضى بأن يتعرض له أحد بإتلاف بدنه بالضرب أو بالجرح أو بالقتل.

وقد اعتمد الشرع في قانون العقوبات على هذه الغريزة في الإنسان، فقرر وضع عقوبات مادية للمخالفات الشرعية، فحكم بقطع يد السارق ليظهر التشوه في بدنه أمام الآخرين، فيتعظون به ولا يقربون مثل عمله، كما قرر وضع عقوبات معنوية لها أيضاً لينال الجاني العقوبة على الوجه الأكمل لتكون أكثر ردعاً، فسلب عنه وصف العدالة ليصير عاصياً أو فاسقاً كي يشعر بوضاعته في

(١) نفس المصدر نقلاً عن الخطابي في تفسير ذلك.

المجتمع، وليرى الآخرون فيه هذا الذل فيبتعدون عن مثل فعله سعياً لمحاصرة الانحراف وتقليل المنحرفين في المجتمع، كما يحاصر المرض الحسي إذا أصاب البدن لمنعه من الانتشار في أجزائه الأخرى لئلا يشكل عليها مزيداً من الخطر.

من هنا فقد جرى إطلاق وصف الفسق على من ترك واجباً في الشرع أو ارتكب محرماً فيه، فقال تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾(1). ووصف الله تعالى الذين خالفوا الأمر باجتناب الصيد يوم السبت، واحتالوا على الحكم الشرعي فنشروا شباكهم يوم السبت، وسحبوها بما فيها من الصيد يوم الأحد بأنهم فاسقون، فقال تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون * فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾(2). كما وصف من يخالف المنهيات بالفسق، فقال تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾(3). وبالجملة قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾(4).

---

(1) النور آية ٤.

(2) الأعراف آية ١٦٣ ـ ١٦٥.

(3) المائدة آية ٣.

(4) المائدة آية ٤٧.

وفي التفريق المطلق بين الملتزم بأوامر الله تعالى، والمخالف لها في المنقلب والمصير يقول تعالى: ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[1]، وذلك من أجل أن يكون في التفريق بينهما تقريب للمؤمن الصالح التقي، وتبعيد للمتمرد الفاسق الشقي تشجيعاً على الالتزام وتكريم الملتزمين، وتنفيراً عن المخالفة وتحقير المخالفين ليشعروا بالوضاعة والانحطاط، فيسارعوا إلى التخلص من موجبات تلك الأوصاف في الوقت الذي يشعر فيه الملتزمون بالعلو والثبات، كما قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[2] .

وفي هذا ورد النهي عن وصف المنافق بالسيد لما فيه من خلط الحق بالباطل من جهة، ولما فيه من تعظيم من يستحق التحقير من جهة أخرى، مما يؤدي إلى التستير عليه ورفع معنوياته، فيتمكن من القيام بدوره بصورة أكثر فعالية وأعظم ضرراً، فقال ﷺ : «لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل»[3] وفي رواية: «إذا قال الرجل للمنافق: يا سيد فقد أغضب ربه»[4] وفي الحديث «أنزلوا الناس منازلهم»[5] .

ولما وصف الله تعالى المنافقين بالفسق لجرأتهم على حدود الله تعالى ومخالفتهم لمقتضياتها مع دعواهم الإيمان بالله ورسوله، فقال تعالى: ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾[6]. دل على المنع من تسييد كل من عرف بالفسق عن الشرع

---

(١) السجدة آية ١٨.

(٢) آل عمران آية ١٣٩.

(٣) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح. انظر: «الترغيب والترهيب» ج٣ ص٥٧٩ كتاب الأدب.

(٤) رواه الحاكم، وقال صحيح الإسناد. انظر: نفس المصدر.

(٥) رواه مسلم وأبو داود عن عائشة مرفوعاً، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن معاذ مرفوعاً بلفظ: «أنزل الناس منازلهم من الخير والشر». انظر: «كشف الخفاء» ج١ ص٢٤١ رقم الحديث ٢٢٩.

(٦) التوبة آية ٦٧.

وبمحاربته في السر أو في العلن، لإشعارهم بتقبيح أفعالهم ليقلعوا عنها، وليحتاط المسلمون الصالحون منهم، فلا يقعوا في حبال خداعهم وشراك مؤامراتهم، وقد قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾(١).

فالأسماء والأوصاف ترفع من معنويات أصحابها إذا كانت حسنة، وتحطّ من تلك المعنويات إذا كانت سيئة، لذلك وجب إطلاقها على من يستحقها على الوجه المطابق للواقع، لتترك أثرها في المسمى والموصوف على جهة الصواب.

المطلب الثالث: خطورة إطلاق الأوصاف على غير مستحقيها.

في الوقت الذي يجوز فيه إطلاق وصف الكفر أو الشرك أو الفسق أو العصيان على من يأتي بموجباتها لمحاصرة انحرافه، يجب الحذر من إطلاقها على غير مستحقيها ممن لم يثبت أنه أتى ما يوجب إطلاقها عليه، فكما لا يجوز وصف الكافر بالمسلم لا يجوز وصف المسلم بالكافر، فقد قال ﷺ : «ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال: يا عدو الله وليس كذلك إلا جار عليه»(٢). وفي رواية «ولعن المؤمن كقتله ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله»(٣). كذلك فإنه كما لا يجوز وصف الفاسق بالتقوى لا يجوز وصف التقي بالفسق؛ لأن ذلك يصبح عدواناً على عرض الغير وسمعته، قد يحمل على رد هذا العدوان بعدوان مماثل، فتنتشر الأحقاد والكراهية والفوضى في المجتمع، وربما يصل الأمر بالمظلوم إلى الانتقام ممن ظلمه بلسانه، أو بيده.

ولذلك فقد وضع الشرع عقوبات وحدوداً لمن يتهم الآخرين بما ليس

---

(١) النساء آية ٧١.

(٢) رواه مسلم. انظر «مختصر مسلم» للمنذري ج١ ص١٩ كتاب الإيمان. باب من قال لأخيه كافر. رقم الحديث ٥٠.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وصححه. انظر: «الترغيب و الترهيب» ج٣ ص٤٦٥ كتاب الأدب. رقم الحديث ٥.

فيهم، فجعل عقوبة القذف بالزنى ثلاثية، فقال تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾[1] .

وقد شرع الله تعالى العقوبة على مثل ذلك؛ حتى لا يتجرأ الناس على اتهام بعضهم بعضاً بما ليس فيهم، فيلحق بهم الأذى النفسي الذي يشعرون معه بالصغار الذي يحملهم على العزلة والانكسار في حال ضعفهم، أو على الرد والانتقام في حال قوتهم، وفي كلا الحالين يلحق الضرر بالمجتمع.

ولهذا فإنه متى طلب المقذوف إنزال العقوبة في القاذف بعد ثبوتها فلا يجوز للحاكم أن يمتنع عن ذلك، ولا يجوز للآخرين أن يتشفعوا في الأمر بعد وصوله إلى الحاكم، وإنما يعود أمر العفو عنه إلى المجني عليه وحده.

وما لم يرد في عقوبة حد شرعي من هذه الاتهامات أو التعديات المعنوية يعود أمر تقديرها إلى القاضي الشرعي، فيحكم بتعزير من يفعل ذلك، ويراعى في تحديد العقوبة التعزيرية حال المعتدي والمعتدى عليه بما يردع الناس عن مثل هذه التعديات، ولا مانع من وضع قانون يحدد نوعية العقوبات وكيفية إنزالها في المعتدي بما يضبط الأمر، فيمنع من تجاوز القاضي أو تقصيره، ويمنع الناس من تعاطي هذه الأوصاف بصورة عشوائية دون دليل من كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ أوإجماع الأمة.

فكما أن نعت المنحرفين بما يستحقونه من الأوصاف مطلوب شرعاً؛ لتحقيق مصلحة ردعهم عن ذلك الفعل، ومنع الآخرين من الاقتداء بهم فيه، كذلك فإن وصف غير المستحقين لها ممنوع شرعاً، لدفع مفسدة تبادل الاتهامات وانتشار المهاترات في الناس دفاعاً وانتقاماً.

---

(١) النور آية ٤.

ويوم أن ترك الناس استعمال هذا المفهوم الشرعي في التعامل فيما بينهم، أدى بهم ذلك إلى تعظيم الحقير وتحقير العظيم، حتى انقلبت الموازين في أعين الناس وتحطمت المقاييس في نفوسهم، فارتفع السفهاء إلى المواقع العليا في المجتمع إلا من رحم الله تعالى، وانخفض العلماء إلى المواقع الدنيا، وحوصروا في كل زاوية وحوربوا في كل ميدان؛ لإخراجهم عن ساحة التأثير في إدارة البلاد على كل صعيد سواء كان سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو ثقافياً أو تعليمياً أو عسكرياً؛ لإلغاء دورهم كي يحل محلهم أصحاب المبادىء المنحرفة والآراء الضالة والمفاهيم المسمومة؛ ليدمروا أجيال الأمة تحت ستار العلم والتقدم والحضارة والحداثة والعصرنة، ونحو ذلك من العبارات التي أخذت الأبصار وأعمت البصائر؛ ليحولوا هذه الأمة إلى رجل أعمى، يحتاج إلى من يقوده ويوجهه.

وبذلك اختلط الحق بالباطل، وامتزج الخير بالشر، وضاعت القيم في الناس؛ لفقدان عامل التمييز بين البشر على أساس التقوى والعمل الصالح في ميدان الصراع بين الإيمان والكفر. وقد قال تعالى إشارة إلى أهمية التمييز بين الناس: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾[1]. وقال تعالى أيضاً: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾[2].

---

(١) آل عمران آية ١٧٩.

(٢) الأنفال آية ٣٧.

المبحث الثاني

التصنيف ضمن دائرة المنتسين إلى الإسلام

المنتسبون إلى الإسلام على ثلاثة أنواع، فمنهم المسلمون، ومنهم المؤمنون، ومنهم المنافقون. وسنجعل الكلام عن كل نوع منهم في مطلب مستقل.

المطلب الأول: المسلم

الإسلام: وصف يطلق على كل من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله بلسانه. حيث يكون من نطق بالشهادتين قد دخل في الإسلام كله؛ لأن مقتضى الشهادتين استعداد الناطق بهما للاعتراف بكل ما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ من الأحكام الاعتقادية والأحكام التشريعية من الناحية النظرية، وللعمل بكل ما تشتملان عليه من الناحية التطبيقية العملية في حدود القدرة والاستطاعة البشرية، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾(١) وقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾(٢).

ولكن المنتسبين إلى الإسلام يتفاوتون في التزامهم بالأحكام العملية التشريعية، بحسب قوة إيمانهم وضعفه الناشيء عن مدى استحواذ الشيطان على قلوبهم بالوسوسة والتمويه، فيكون هؤلاء بهذا الاعتبار على إحدى ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: التقوى: وهي صفة تطلق على المسلم إذا التزم بجميع المأمورات العملية، الواجبات منها والمندوبات، واجتنب جميع المنهيات الشرعية، المحرمات منها والمكروهات، لأن التقوى من أعمال الجوارح بخلاف الإيمان؛ فإنه

---

(١) البقرة آية ٢٠٨.

(٢) التغابن آية ١٦.

من أعمال القلب، ولهذا اجتمع الوصفان في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾[2]. ﴿ودع أذاهم﴾[3].

ولا بدّ وأن يجتمع في التقي صدق الإيمان وصحة العمل اللذان هما سبب الفوز بالجنة والنجاة من النار. كما قال تعالى: ﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[4].

ويترتب على مَنْ هذه حالُه؛ أنه يوصف بالعدالة التي تستوجب قبول خبره واعتماد شهادته تكريماً له وتشجيعاً للآخرين على الاقتداء به.

الحالة الثانية: العصيان: وهي صفة تطلق على المسلم إذا التزم بجميع الواجبات، ولكنه ترك بعض المندوبات بصورة مستمرة أو اجتنب جميع المحرمات، ولكنه ارتكب بعض المكروهات بصورة مستمرة، وهي التي تسمى بالصغائر[5].

فالمسلم الذي يؤدي الصلوات الخمس، ولكنه يترك السنن الرواتب أو

---

(١) الحشر آية ١٨.

(٢) الأحزاب آية ١.

(٣) الأحزاب آية ٤٨.

(٤) العصر آية ١-٣.

(٥) وقد ورد في القرآن الكريم التفريق بين الفسق والعصيان، كما ورد التفريق فيه بين الكفر والإيمان، فلكل لفظة من هذه المصطلحات الشرعية مدلولها الخاص بها، إذا اجتمعت مع غيرها. كما قال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ الحجرات آية ٧. ولكنها إذا افترقت؛ فقد يطلق الفسق على الكفر كما يطلق الكفر على الفسق، وقد تطلق المعصية على الكفر والفسق كما قد يطلقان عليها ففي الحديث «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» رواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج١ ص٢٣ كتاب الإيمان رقم ٦٦.

النوافل بصفة دائمة، أو يصوم رمضان ولكنه لا يصوم من النوافل شيئاً لا الستة أيام من شوال، أو الأيام الثلاثة البيض من كل شهر، أو لا يصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو لا يصوم شيئاً من شعبان، ونحو ذلك بصورة مستمرة، أو يؤدي زكاة ماله في كل عام، ولكنه لا يتصدق بشيء من ماله بعد ذلك، أو لا يهب شيئاً منه لفقير أو لا يهدي بعضاً منه لجار أو لصاحب أو لذي رحم بصورة دائمة مثلاً، أو يحج بيت الله الحرام، ولكنه لا يعتمر أصلاً، وهو قادر على الإتيان بتلك السنن أو المندوبات التي تركها ولا مانع لديه من فعلها.

والمسلم الذي يجتنب الزنى، ولكنه لا يتورع عن النظرة الحرام بصفة مستمرة أو يجتنب السرقة، ولكنه لا يترك أخذ المحقرات من الأشياء دون إذن من صاحبها بصفة دائمة، أو يجتنب القتل ولكنه لا يترك إيذاء الآخرين في أبدانهم، أو لا يأكل الربا ولكنه لا يترك يسير الغش في بيعه وشرائه أو يترك أكل مال اليتيم، ولكنه لا يتورع عن استهلاك اليسير منه، أو يجتنب قذف المحصنات من النساء، ولكنه لا يترك تتبع السقطات وملاحقة الزلات الخفيفة من نظرة عابرة أو كلمة نابية، ونحو ذلك.

إن المسلم الذي يفعل شيئاً مما ذكرنا، أو نحواً مما وصفنا يعتبر عندئذ عاصياً، ولكنه لا يترتب على ذلك فيه سلب وصف العدالة منه. لقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[1]، ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة﴾[2]. وإنما يوصف بذلك تشجيعاً له على تركه، وتنفيراً للآخرين من الاقتداء به.

---

(١) النساء آية ٣١.

(٢) النجم آية ٣٢.

obeikandi.com

الحالة الثالثة: الفسوق: ويوصف المسلم بأنه فاسق إذا ترك بعض أصول المأمورات الواجبة(١)، أو ارتكب بعض كبائر المنهيات(٢)، المحرمة غير مستحل لذلك وإلا كان مرتداً.(٣)

فالمسلم الذي يترك الصلاة الواجبة كالصلوات الخمس أو الجمعة مثلاً مع الإقرار بأنها واجبة من غير عذر حتى يخرج وقتها، أو لا يصوم رمضان، أو لا يؤدي زكاة ماله بالرغم من امتلاكه نصاب الزكاة، وهو عشرون مثقالاً من الذهب أو ما يعادلها من العملات المحلية أو الرائجة، وبالرغم من دوران الحول عليه، أو لا يحج بالرغم من قدرته على ذلك، فإنه يوصف بالفسق.

والمسلم الذي يرتكب جريمة الزنى أو السرقة أو السحر أو يأكل الربا أو يأكل مال اليتيم، أو يقذف المسلمين في أعراضهم أو يعتدي على النفس المسلمة المحرمة بالقتل أو بالجرح أو بالضرب، وكذا بالسب أو الشتم أو اللعن ونحو ذلك من المنهيات الشرعية على جهة التحريم، فإنه يوصف بالفسق فيرد خبره، وتسقط شهادته ويسلب وصف العدالة، ويقام عليه الحد أو التعزير، ويقاطع عند اللزوم لمحاصرته.

والمقصود من إقامة الحد على هذه المخالفات الشرعية منع تكرارها من

---

(١) ونعني بأصول المأمورات: أركان الإسلام الخمسة.

(٢) ونعني بكبائر المنهيات: المحرمات السبع وهي كما ورد في الحديث: «اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» رواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج١ ص١٩ كتاب الإيمان رقم الحديث ٤٧.

(٣) لأنه باستحلال ما حرم الله أو تحريم ما أحل يكون قد رد على الله تعالى حكمه.

فاعلها، أو منع الآخرين من الاقتداء به[1] فيها صيانة للمجتمع من هذه الأمراض الأخلاقية، وحماية له من الانهيار والوقوع في بؤرة الفساد، فيعود الذي أقيم عليه الحد إلى حالة الطهر، ونظافة السلوك ويزول عنه وصف الفسق، وتعود إليه عدالته[2]، كما قال تعالى فيمن تاب منهم ومن جملة توبته إقامة الحد عليه[3]: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾[4].

(١) لمحاصرة الجريمة، ومنع انتشارها في المجتمع.

(٢) وبين الفقهاء خلاف في قبول شهادته بعد التوبة، فالجمهور على أنها تقبل لزوال الفسق عنه بالتوبة، وذهب أبو حنيفة والنخعي والثوري والحسن البصري إلى أن شهادته لا تقبل أبداً ولو تاب، لنص الآية. انظر «تفسير القرطبي» ج١٢ ص ١٧٩.

(٣) عند جمهور أهل العلم أن التوبة لا تسقط عنه الحد إذا بلغ إلى الحاكم خلافاً للشعبي. انظر نفس المصدر.

(٤) النور آية ٤ ـ ٥.

المطلب الثاني: المؤمن

الإيمان: وصف يطلق على كل من صدق محمداً ﷺ بكل ما جاء به عن الله تعالى ظاهراً وباطناً، مذعناً له بقلبه، عاملاً بمقتضاه بجوارحه، معتقداً صحته وسلامته من النقص والعيوب لصدوره عن الله تعالى العليم الحكيم. كما قال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾(١).

وعلى رأس ما يجب عقد القلب عليه من قضايا الإيمان الأركان الستة التي أشار إليها النبي ﷺ في جوابه لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى»(٢).

فيكون ذلك مدخلاً لقبول اعتقاد كل ما ورد به الخبر الصحيح عن القضايا الإيمانية الغيبية تفصيلاً لهذه الأسس، وبياناً لمقتضياتها.

فالإيمان من عمل القلب، وهو من الإسلام بمنزلة الأساس من البناء، فلا تقبل أعمال الإسلام التشريعية من صاحبها ممن لم يكن مؤمناً بالله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾(٣)، ولقوله تعالى: ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾(٤).

والإيمان والإسلام لفظان إذا اجتمعا في سياق جملة واحدة افترقا وكان

---

(١) النساء آية ٦٥.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص١٠ كتاب الإيمان والإسلام. رقم الحديث ٣٦.

(٣) العصر آية ١-٣.

(٤) الأنبياء آية ٩٤.

لكل واحد منهما مدلول يخصه يختلف به عن الآخر، فيكون الإيمان مقصوداً به أعمال القلب وتسمى الأحكام الاعتقادية، ويكون الإسلام مقصوداً به أعمال الجوارح وتسمى الأحكام التشريعية. كما في قوله تعالى: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[1]، وإذا وردا في سياق جملتين مختلفتين اجتمعا، فيطلق كل واحد منهما على الآخر لما بينهما من تلازم وارتباط، فإن الإتيان بأحكام الإسلام العملية إنما يكون بدافع الإيمان بمصدر تشريعها وهو الله تعالى؛ لأنه هو الآمر بذلك، ولأن الإيمان بالله تعالى يقتضي الإتيان بما أمر به ثقة بعلمه، وحكمته لكونه هو الذي خلق: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾[2]، ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[3].

المطلب الثالث: المنافق

النفاق: وصف يطلق على من اعتقد الكفر بقلبه وأظهر أعمال الإسلام بجوارحه[4]، إما لتحصيل مصلحة مادية أو معنوية يطمع في تحقيقها، وإما لدفع مضرّة في نفسه أو ماله أو عرضه يسعى إلى تلافيها، كما قال تعالى: ﴿ومن

---

(١) الحجرات آية ١٤.

(٢) الملك آية ١٤.

(٣) الأعراف آية ٥٤.

(٤) وهذا هو الذي يعرف بنفاق الاعتقاد، وأما نفاق العمل فيطلق على من يلازم المعصية أو الفسق مع الإقرار بتحريمها، فيكون كالمنافق من جهة مخالفة ما يفعله لما يعتقده، وعلى هذا حمل الترمذي حديث: «أربع من كن فيه كان منافقاً، وإن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وإنما معنى هذا عند أهل العلم، إنما كان نفاق التكذيب على عهد رسول الله ﷺ . اهـ. انظر: «تحفة الأحوذي»ج٧ ص٣٨٥، أبواب الإيمان باب علامة المنافق. رقم الحديث ٢٧٦٨.

الناس من يقول آمنا با لله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون ا لله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم ا لله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[1]، وقال فيهم أيضاً: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول ا لله وا لله يعلم إنك لرسوله وا لله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل ا لله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾[2] .

ولما كان الإيمان من عمل القلب وكذا النفاق، فقد أصبح عسيراً على المرء أن يقطع بإيمان إنسان أو نفاقه، وإنما هناك ظن غالب يعمل به من خلال ما يظهر من أعمال الناس وأقوالهم، ثم إسناد أمر حقائقهم إلى ا لله تعالى علام الغيوب الذي: ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾[3]، ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[4]، ﴿إن ا لله عليم بذات الصدور﴾[5].

ولكن ا لله تعالى جعل لأعمال القلوب علامات تنعكس على الجوارح، فتوصل إلى معرفة ما تكنه معرفة ظنية غالبة، ولكن لا يمكن القطع على القلوب من خلالها لاحتمال دخول الخطأ فيها، فقد يتعاطاها المؤمن اعتقاداً، وقد يتعاطاها المنافق تستراً، والأصل تحسين الظن حتى يظهر من فلتات اللسان ومن سوء الأعمال ما يدل على أن من يتعاطى أعمال الإسلام وشعائره، إنما يريد

---

(١) البقرة آية ٨ ـ ١٠.

(٢) المنافقون آية ١ـ٢.

(٣) آل عمران آية ٥.

(٤) ق آية ١٦.

(٥) آل عمران آية ١١٩.

التستر على حقيقة ما في نفسه من الكفر، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾(١).

وسيأتي بيان صفات المنافقين القولية والعملية، وكيفية التعامل معهم في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى.

والمنافقون هم أخطر أنواع المنتسبين إلى الإسلام لصعوبة معرفتهم على حقيقتهم؛ لأن النفاق من أعمال القلوب كما ذكرنا، فيتمكنون من الغدر بالمسلمين وخيانتهم بصورة خفية مع الأمان من العقوبة، فكانت عقوبتهم في الآخرة عند من يعلم حقائق ما في قلوبهم أشد من عقوبة الكافرين العلنيين، كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾(٢).

الانتساب إلى الإسلام اختياري بعكس الخروج منه:

ولا يجوز لواحد ممن انتسب إلى الإسلام باختياره أن يخرج منه بعد ذلك بحال من الأحوال، ومن فعل ذلك استتيب، فإن تاب وإلا قتل بإقامة حد الردة عليه، لقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»(٣)، وإنما يحكم عليه بذلك حتى لا يتخذ الدين مطية لأهداف خاصة، حتى إذا توصل إليها صاحبها انخلع من دينه، كما ينخلع من ثوب الصيف في فصل الشتاء أو العكس بعد أن استنفذ غرضه منه.

ولا يجوز التسامح في إقامة حد الردة على من يفعل ذلك، لما يترتب على هذا العمل من مفاسد كثيرة، ومنها:

(١) الحجرات آية ١٢.

(٢) النساء آية ١٤٥.

(٣) رواه البخاري وأحمد وأصحاب السنن الأربعة: أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس مرفوعاً. انظر: «فيض القدير» ج٦ ص٩٥ رقم ٨٥٥٩.

أولاً: إن ذلك يجعل الإسلام ألعوبة بأيدي الفجرة المنافقين، كلما أرادوا مغنماً ادعوا الإسلام، وإذا خافوا مغرماً أنكروا الانتساب إليه.

ثانياً: إن ذلك يشكك ضعاف الإيمان من المسلمين بصحة هذا الدين، كما يورث الشك في نفوس الآخرين، فلا يدخلون في الإسلام.

ثالثاً: إن ذلك يجرئ الزنادقة على بث الشبه والشكوك في أوساط العامة طمعاً في إخراجهم عن دين الله وتنفيرهم منه. كما أخبر تعالى عن هدفهم هذا في قوله: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾[1] .

فمن رضي الإسلام عقيدة وشريعة، فليس له أن يرجع عنه إلى غيره صيانة للإسلام، وحماية له من الفساد والمفسدين، فله حرية اختيار الدخول في الإسلام ولكنه ليس له حرية الخروج منه.

(١) آل عمران آية ٧٢.

obeikandl.com

المبحث الثالث

التصنيف ضمن دائرة غير المنتسبين إلى الإسلام

وهؤلاء على نوعين: أهل أديان سماوية، وأهل مذاهب أرضية، فالحديث عن ذلك يقع في مطلبين:

المطلب الأول: أهل الأديان السماوية:

ونعني بأهل الأديان السماوية: كل من له كتاب سماوي سابق منزل من عند الله تعالى، وإن كان قد دخله التحريف والتبديل، فالعبرة للأصل الذي نزل به ذلك الكتاب.

وهؤلاء على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: اليهود

وهم: أتباع موسى عليه السلام الذي أنزلت عليه التوراة، ويسمون بني إسرائيل، وهو يعقوب حفيد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾(١) .

الصنف الثاني: النصارى

وهم: أتباع عيسى عليه السلام الذي أنزل عليه الإنجيل، ويسمون بني إسرائيل أيضاً، جاء ليؤكد ويجدد رسالة موسى عليه السلام بما يتناسب وأحوال أهل عصره: ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين﴾(٢).

---

(١) الإسراء آية ٢.

(٢) المائدة آية ٤٦.

obeikandl.com

الصنف الثالث: المجوس

وهم: أتباع زرادشت الفارسي الذي تنسب إليه الديانة الزرادشتية المجوسية، وتعتمد على الإيمان بوجود إلهين اثنين متناقضين متنازعين: أحدهما إله الخير والنور، والثاني إله الشرّ والظلمة، ويسمى الأول (أهورامزدا) ويسمى الثاني (أهريمان).

وقد دعا زرادشت الناس إلى حب الخير وتغليبه على الشر، واعتبر الشمس رمزاً لإله الخير والنور، فتوجه بالعبادة إليها وسعى إلى إبطال عبادة ما عدا ذلك مما كان يعبده المجوس قبله، وادعى أنه أوحي إليه بذلك، وكان في القرن السادس قبل الميلاد.

ويعتقد زرادشت أن طريق الإيمان الكامل، والسبيل الوحيد إلى الإله الواحد هو الاعتقاد الطيب والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة، وأن الإنسان مسؤول عن عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، وأن عليه أن يساعد إله الخير ليتغلب على إله الشر(١).

ولا خلاف بين العلماء في جواز عقد الذمة لليهود والنصارى، إذ لا خلاف في أن لهم كتاباً سماوياً كما ذكرنا.

وأما المجوس فاختلف في جواز عقد الذمة لهم، وسبب الخلاف هو: هل كان لهم كتاب سماوي ثم رفع، فيلحقون بأهل الكتاب فتعقد لهم الذمة، ويجوز نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم؟ وهو قول أبي ثور من الفقهاء، أم ليس لهم كتاب سماوي أصلاً؟ فيلحقون بالمشركين، فلا تعقد لهم الذمة ولا تنكح نساؤهم

(١) انظر: «عالم الأديان» ص ٢٦٥.

ولا تؤكل ذبائحهم، أم لهم شبهة كتاب فيلحقون بأهل الكتاب في بعض الأحكام كأخذ الجزية؟ ويلحقون بالمشركين في بعض الأحكام، فلا تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم؟ وهذا هو الراجح للحديث: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب، غير آكلي ذبائحهم ولا ناكحي نسائهم»[١] .

ولأهل الأديان هؤلاء ثلاث حالات[٢]:

الحالة الأولى: الخاضعون لسلطان الله والداخلون في كنف المسلمين وحمايتهم، ويسمون بأهل الذمة، ويكون عقد الذمة معهم مؤبداً في الأصل إلا أن يأتوا بما ينقضه بمخالفة شروطه.

الحالة الثانية: من عاهدناهم لمصلحة بصورة مؤقتة، ويسمون بالمعاهدين.

الحالة الثالثة: من ليس بيننا وبينهم عهد، ولم يخضعوا لسلطان المسلمين ويسمى هؤلاء بالمحاربين.

أما الحالة الأولى: فهؤلاء لهم أحكامهم في أبواب عقد الذمة في كتب الفقه، ولكننا هنا نعرض إليها بإشارة خفيفة كي يتضح الموقف الذي يقفه الإسلام منهم، وتظهر مدى صيانة الإسلام للنفس البشرية من أن تهدر كرامتها باتباعها أهواءها وانسلاخها عن أمر ربها، فنقول وبالله نتأيد:

إذا عقدنا الذمة لأهل الكتاب والمجوس حرم علينا إيذاؤهم والتعرض لهم،

---

(١) انظر: الكلام في سنده في «الدراية» ج٢ ص١٣٤ رقم ٧٣٩ وقد أشار فيه ابن حجر إلى ثبوت معناه في البخاري، وانظر: كتاب «المغني» ج٩ ص٣٣٠ رقم المسألة ٧٦٤٨.

(٢) هذا التقسيم يوم كان للمسلمين دولة خلافة، وأما الآن فينقسم الناس إلى أمة إجابة وهم المسلمون وأمة دعوة وهم من عداهم.

obeikandl.com

لما ورد في الحديث: «من ظلم معاهداً أو تنقصه، أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة»[1]. وفي الحديث الصحيح: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر»[2]. حتى إن الخلاف وقع بين الفقهاء فيما لو قتل مسلم ذمياً فهل يقتل به أم لا؟ وليس ذلك من باب جعل الذمي في المرتبة كالمسلم وإنما من باب الحفاظ على حرمة العقد والذمة، ولنا عليهم مقابل هذا: أن يدفعوا الجزية عن كل رجل بالغ قادر على العمل، وذلك مقابل حمايتنا لهم وحفاظنا على مصالحهم، كما قال تعالى آمراً بمقاتلتهم لتقويم اعوجاج عقيدتهم، كما يتم إجراء العملية الجراحية للمريض لتقويم حالته الصحية: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون با لله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم ا لله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[3].

ولنا عليهم: أن لا يذكروا دين الإسلام ولا نبي الإسلام بسوء، ومن فعل منهم شيئاً من ذلك انتقض عهده وحل دمه، ومن ثم تجري عليهم أحكام الإسلام في النفس والمال والعرض وإقامة الحدِّ فيما يحرمونه لا فيما يحلونه كالخمر، ولا تؤخذ الجزية من امرأة وصبي ومجنون وقسّ وأعمى وشيخ فان وراهب بصومعته.

---

(١) رواه أبو داود عن عدة من أبناء أصحاب رسول ا لله ﷺ وسكت عنه إشارة إلى قبوله، كما هي القاعدة عنده، وقال في المقاصد الحسنة: سنده لا بأس به ولا يضرّه جهالة من لم يسمّ من أبناء الصحابة فإنهم عدد منجبر به جهالتهم. ورواه البيهقي وقال: إنه عن ثلاثين من أبناء الصحابة عن آبائهم. انظر: «كشف الخفاء» ج٢ ص٣٠٣ رقم الحديث ٢٣٤١.

(٢) رواه البخاري وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً. انظر: «فيض القدير» ج٣ ص٣١٥. رقم ٣٤٩٤.

(٣) التوبة آية ٢٩.

obeikandi.com

ومن أبى من أهل الذمة بذل الجزية أو الصغار أو أبى الالتزام بحكمنا، أو زنى بمسلمة أو أصابها بنكاح، أو قطع الطريق أو ذكر الله أو رسوله بسوء، أو تعدى على مسلم بقتل، أو فتنه عن دينه بصفة فردية أو جماعية عن طريق المدارس أو المعاهد أو الإرساليات التبشيرية، فإنه لا يسمح لهم بإنشاء تلك المدارس وإحضار تلك الإرساليات إلى مجتمعنا، من فعل ذلك منهم انتقض عقده ويخير فيه الإمام كالأسير، وماله فيء لبيت مال المسلمين ولا ينتقض عهد نسائه.

هذه مجمل أحكام أهل الذمة في الإسلام[1]، شرعها الله تعالى لمساعدة أهل الذمة في اختيار الدين الصحيح عبر فتح المجال لهم، كي يعيشوا في أوساط المسلمين الذين يفترض فيهم أن يكونوا ملتزمين بدينهم عقيدة وشريعة وأخلاقاً وسلوكاً، ليكونوا دعوة خير وقدوة حسنة تسهم في تقويم الانحراف الذي وقع فيه اليهود والنصارى بسبب تحريف المغرضين من زعمائهم للدين فانحرفوا بهم عن الحقيقة.

ومن تأمل قوله تعالى: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[2]، علم - كما يقول الشيخ سعيد حوى - أنه لا يجوز أن يكون للذمي سلطة على المسلم، فلا تسلم إليهم رئاسة وزراء ولا رئاسة ديوان، ولا يستخدمون فيما من شأنه أن يخولهم امتلاك معايش المسلمين وأرزاقهم، كأن يكون قيماً على بيت المال ومسؤولاً عنه أو نحو ذلك، فكل هذا يتنافى مع الآية الكريمة، وكذلك لا يحل له الزواج بمسلمة لأن فيه سلطة له عليها: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾[3]، ﴿لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾[4]. ولا يجوز أن يقال

(١) انظر: «المغني» ج٩ ص٣٢٨ كتاب الجزية.

(٢) التوبة آية ٢٩.

(٣) النساء آية ١٤١.

(٤) الممتحنة آية ١٠.

غير ذلك بعد هذه النصوص؛ لأنه يكون من باب المداهنة في الدين، وهي التنازل عن بعض المبادئ من أجل الالتقاء مع الآخرين على بعض المصالح: ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾(١).

ولهم علينا مقابل ذلك أن لا نكرههم على اعتناق الإسلام لقول الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾(٢)، ولا نجادلهم إلا بالتي هي أحسن، طالما كانوا في حدود الأدب والاحترام: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾(٣) .

وبلغ من سماحة الإسلام مع هؤلاء الكتابيين: أنه لو قتل مسلم لذمي خنزيراً أو أراق له خمراً فإنه يغرم، أما لو فعل ذلك ذمي لمسلم أو أراق له خمراً يكون هدراً لا غرامة عليه في ذلك، لأن الخمر والخنزير حرام في ملتنا، وهم يعتقدون بزعمهم أنه حلال عندهم، هذا حكم أهل الذمة من أهل الكتاب.

تعليل وتحليل:

وإنما وجب علينا معاملتهم على ذلك النحو من التسامح بحكم الشرع الثابت لا بحكم المصلحة المتقلبة، فنحن مطالبون بمعاملتهم تلك المعاملة الحسنة بمقتضى إيماننا بالله ورسوله، وحين نخالف ذلك فإننا نكون قد عصينا الله تعالى بمخالفة أوامره وأوامر رسوله ﷺ ، وبالتالي نكون آثمين يوم القيامة.

وأيضاً فإننا نعاملهم بذلك من الناحية العقلية، لأن ديننا أوسع آفاقاً وأرحب صدراً، لما اتصف به وانفرد من الخصائص في تصوراته ومناهجه:

---

(١) القلم آية ٩.

(٢) البقرة آية ٢٥٦.

(٣) العنكبوت آية ٤٦.

فهو أولاً: رباني المصدر.

وهو ثانياً: ثابت في مقوماته وقيمه الذاتية مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة.

وهو ثالثاً: شامل في أحكامه لكل أحوال البشر وأوضاعهم.

وهو رابعاً: متوازن في أحكامه وتكاليفه، فلا يعالج قضية على حساب أخرى، أو يشتط في معالجة جانب ويغفل جانباً آخر.

وهو خامساً: إيجابي في العلاقة بين الله وعباده، يستجيب لهم ويحفظهم كما هو إيجابي بين أفراده، بحكم تكليفه بالتواد والتراحم والترابط.

وهو سادساً: واقعي في معالجته لقضايا البشر، يراعي فيها ما جبلت عليه النفس الإنسانية من طبائع الخير والشر، لم يدخله التحريف في شيء من قواعده وأصوله وفروعه؛ كما حصل لغيره من الأديان السابقة عليه(١).

وبسبب من هذه الصفات استحق هذا الدين أن تكون له القوامة والوصاية على أبناء الأديان الأخرى، ممن ارتضوا الحياة في كنفه وتحت سلطانه، وقد جرت سنة الله تعالى أن يكون الأكمل والأعقل والأغنى والأقوى، خالياً عن الحقد على الآخرين والحسد لما أوتوه، ولهذا المعنى أعطيت القوامة في البيت للرجل دون المرأة، ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ أعطي الإسلام حق القوامة والهيمنة على ما سبقه من الأديان والشرائع السماوية، وقد قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾(٣).

---

(١) انظر بتوسع: «خصائص التصور الإسلامي» للأستاذ سيد قطب.

(٢) الصف آية ٩.

(٣) المائدة آية ٤٨.

وأما الحالة الثانية: وهم الكافرون الذين عاهدناهم على الصلح بيننا وبينهم، ويندرج في ذلك من دخل بلاد المسلمين بتأشيرة دخول رسمية، فهؤلاء توفى لهم هدنتهم إلى الأجل الذي حددناه معهم، ولا يحل لنا نقض العهد معهم حتى يكونوا هم البادئون بذلك، ولا يجوز لنا الغدر بهم، إذا دخلنا بلادهم[1]؛ لأننا قد دخلناها بسمة دخول رسمية هي بمثابة العهد والأمان لهم، قال تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً و لم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن ا لله يحب المتقين﴾[3]، وهذه المعاهدة لا تتم إلا إذا كانت المصلحة العامة للمسلمين تقتضي ذلك. وفي التحذير من ظلم المعاهد يقول النبي ﷺ : «من قتل معاهداً ـ أي ظلماً ـ لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»[4] .

وأما الحالة الثالثة: وهم المحاربون: فليس سبيلنا معهم إلا الحرب والقتال؛ حتى ينصاعوا لأحكام الإسلام وسلطانه، أو يقتلوا دون ذلك، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾[5]. ومن أسر منهم فنساؤهم وأموالهم وأولادهم غنيمة للمجاهدين، وأما الرجال فإمام المسلمين مخير فيهم كما تقدم بين أربعة أمور يختار أيها كان أصلح للمسلمين، وهي: القتل أو الاسترقاق أو المنّ أو الفداء.

---

(١) انظر «المغني» لابن قدامة ج٩ ص٢٩٥ ، رقم المسألة ٧٥٩٦.

(٢) الإسراء آية ٣٤.

(٣) التوبة آية ٤.

(٤) رواه البخاري، انظر: «صحيح البخاري» ج٤ ص١٢٠ كتاب الجهاد، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.

(٥) التوبة آية ١٢٣.

المطلب الثاني: أهل المذاهب الأرضية

وهؤلاء مذاهبهم شتى وكثيرة، ولكنها تنتهي إلى صنفين اثنين:

الصنف الأول: مشركون

و هم كل من جعل لله تعالى شريكاً في الخلق والإيجاد وفي الحكم والتشريع، فإنهم وإن اعتقدوا بوجود إله لهذا الكون وخالق له، إلا أن ذلك الاعتقاد لا ينفعهم؛ لأنهم أفسدوه بجعلهم لله شريكاً في الربوبية أو في الألوهية، بالرغم من وجود الدلائل الكثيرة والآيات العظيمة على وحدانيته في الخلق والإيجاد لكل ما في هذا الكون، مما يجعله تعالى مستحقاً للتوحيد والتفريد في العبادة والطاعة؛ لأنه هو الذي أوجد هذه الخلائق بعلمه وحكمته وقدرته، كما قال تعالى موجهاً رسوله ﷺ ليناظر المشركين، ويناقشهم فيما هم عليه من اتخاذ الأنداد لله، وجعل الشركاء له في العبادة: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ۞ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ۞ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ۞ فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾(1).

ويلفت نظرهم إلى عظمة الله تعالى وانتهاء الأمر كله إليه وحده.

ابتداء بخلق السماوات والأرض وما فيها من جبال وأنهار وأشجار، وانتهاء إلى العناية بالخلق والرعاية والهداية والرزق؛ ليكون ذلك دليلاً على بطلان وجهتهم نحو الشرك بالله تعالى، فقال مخاطباً رسوله ﷺ ليواجههم بهذه

---

(1) فصلت آية ٩ - ١٢.

الحقائق، كي يقودهم إلى التسليم بالحقيقة: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آ الله خير أمَّا يشركون * أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع ا الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع ا الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع ا الله قليلاً ما تذكرون * أمّن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع ا الله تعالى ا الله عما يشركون * أمّن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع ا الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾(١).

ولما كانت هذه الدلائل مما لا يخفى على ذي عقل؛ لأنها محسوسة لدى جميع البشر، فإنها تقود الناظر فيها بكل يسر وسهولة إلى وحدانية الخالق، ورفض نسبة شيء من الخلق لغيره تعالى، وبالتالي استحقاقه وحده أن يكون هو الحاكم والمشرع لحياة البشر، وبالتالي فإن من لا يصل إلى هذه الحقيقة يكون قد تعطل عقله وفسدت حواسه، وصار كمن أخبر ا الله تعالى عنهم: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾(٢). وبالتالي فلا يصلح هؤلاء لأن يكونوا أكثر من وقود لجهنم، كما يفعل الناس بالشجرة إذا جفّ فيها ماء الحياة، فتتحول إلى حطب توقد به النار: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾(٣)، أي: الخالون من كل عناصر الخير في هذه الحياة.

---

(١) النمل آية ٥٩ ـ ٦٤.

(٢) الفرقان آية ٤٤.

(٣) الأعراف آية ١٧٩.

الصنف الثاني: ملحدون

أو نعني بهم: كل من أنكر وجود الله تعالى أصلاً! فلم يعترفوا لهذا الكون بخالق، ولا لهذا الخلق بمدبّر، ولا لهؤلاء البشر بمشرّع، وحصروا إيمانهم بالمادة مما تدركه حواسهم الخمس (السمع والبصر والشم والذوق واللمس) ولم يؤمنوا بما وراء ذلك من الغيبيات، معبرين عن نظرتهم للكون والإنسان والحياة بقولهم: (لا إله والحياة مادة) ويسمى هؤلاء بالشيوعية في العصر الحاضر، ولها جناحان تطير بهما في سماء الوهم وتحط بهما في القهر. يمثل أحدهما الاتحاد السوفياتي الذي يتألف من أربع عشرة جمهورية في قارة آسيا، ولكنه انهار تحت مطارق الفطرة التي فطر الله تعالى الناس عليها، وذلك سنة ١٩٩٢م بعد نحو سبعين عاماً من الصراع مع شعوبه اللافظة لأفكاره والنافرة من توجهاته. وقد كان يحكمه حزب واحد يدعى: الحزب الشيوعي بقيادة واحدة مقرها الكرملين في موسكو. والجناح الثاني يمثله الصين الشيوعيّة في قارة آسيا، ويبلغ عدد سكانها نحو ألف وأربع مئة مليون نسمة، يزيد كل عام قريباً من سبعين مليون إنسان. ويحكمه حزب واحد يدعى: الحزب الشيوعي أيضاً. وعلى رأسه قيادة واحدة مقرها في العاصمة بكين؛ ولا زالت تفرض نفسها على الشعب بقوة الحديد والنار، وسيكون لها دور هائل في التأثير على المعادلات السياسية الدولية، وخاصة حين تجف منابع النفط فيها، وتقل موارد المعادن في أراضيها، فتنفتح على العالم المحيط بها زاحفة نحو مواطن المواد الخام؛ لتصنيعها وتوظيفها في حرب المواجهة مع منافسها الرئيسي في العالم المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية، في إطار حرب عقائدية (أيديولوجية) عالمية مدمرة! تستخدم فيها الأسلحة الاستراتيجية النووية والكيماوية وغيرها.

وقد عظم خطر الإلحاد والملحدين حين أصبح لهم دولة تحمل مبادئهم؛ وكيان يحمي معتقداتهم بصريف الأقلام المزوّرة للحقائق، وبصليل السيوف الظالمة للضعفاء من فئات الشعب، التي ترفض هذه المبادىء في قرارة نفوسها، وإن خضعت لها بجوارحها.

ونظراً لضرورة اعتماد الحجة في العقائد قبولاً ورداً، فقد أورد القرآن عليهم من الحجج، وساق لهم من البراهين ما يجردهم من سلاحهم المعنوي، لينقلب عليهم بعد فترة من الزمن سلاحهم المادي؛ لأن الهيمنة الحقيقية على الإنسان إنما تكون بإقناع قلبه وعقله، لا بإكراه لسانه وجوارحه؛ لأنه لا يلبث أن يعمد إلى التخلص ممن أكرهه عند أول بارقة أمل تلوح في الأفق. ولهذا نهى الله تعالى المؤمنين عن إكراه الناس على الإسلام ولو كان حقاً في ذاته: ﴿لا إكراه في الدين﴾[1]، ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[2].

ومما أورده القرآن على المنكرين لوجود الله تعالى من بعض أصناف العرب، ممن كان لهم صلة ببعض ملاحدة الأمم الأخرى من الهند واليونان والفرس والرومان وغيرهم، مشيراً إلى قضية خلق الأشياء وإيجادها بأسلوب الإلزام؛ ليكون ذلك أقوى في الإفحام بتقسيم الأمور إلى احتمالين، إذا انتفى أحدهما ثبت الآخر. فقال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون * أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾[3].

(١) البقرة آية ٢٥٦.

(٢) يونس آية ٩٩.

(٣) الطور آية ٣٥ ـ ٣٨.

وهؤلاء الملحدون أقل في الرتبة من المشركين؛ لأنهم لإنكارهم وجود الله تعالى أصلاً، يكونون قد اصطدموا مع أصل الفطرة التي خلق الله تعالى الناس عليها، وهي الاعتراف الاضطراري بوجود الله تعالى في عالم الذرّ، كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾(١).

ولهذا فإنه لا يجوز إقرار المشركين والملحدين على اعتقادهم بحال من الأحوال، ولا يجوز السماح لهم بالعيش في المجتمع الإسلامي بصفة دائمة، ولو بذلوا الجزية وأعطوها؛ لأنهم بمثابة الأمراض والأوبئة الفتاكة المعدية، التي سرعان ما ينتقل خطرها إلى من حولها، فلا علاج لها إلا بالإبعاد والاستئصال، كما يفعل بالجثة بعد أن تفارقها الروح، فإن الكافرين من غير ذوي الأديان السماوية أموات موتاً معنوياً، وإن كانوا أحياء من الناحية الحسية! كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿أموات غير أحياء﴾(٢). فقد قال مشيراً إلى حياة النفوس بالإيمان وموتها بالكفر، وهما الحياة أو الموت الحقيقيين: ﴿أومن كان ميتاً﴾ أي: بالكفر ﴿فأحييناه﴾ أي: بالإيمان ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾(٣).

ومن هنا كان لابدّ وأن يتحالف أهل الأديان السماوية على اختلافها فيما

---

(١) الأعراف آية ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٢) النحل آية ٢١.

(٣) الأنعام آية ١٢٢.

بينهم للتخلص من المشركين والملحدين؛ لأنهم بمثابة الأجسام الميتة التي لا تلبث أن تنتشر منها الروائح الكريهة لتفسد عليهم أجواءهم الإيمانية، ولا يتم الخلاص من ضرر هذه الروائح بدفن هذه المبادئ والقضاء على من يصرّ على حملها من البشر بعد بلوغ الحجة إليه وبيان الحقيقة بين يديه.

obeikandl.com

الفصل الرابع

أثر التصنيف البشري في الميدان العملي

وفي إطار الحديث عن تقسيم الناس في الإسلام، لابدّ وأن نبين أهم الحقائق المترتبة على هذا التصنيف من الناحية العملية، للحيلولة دون بروز ظاهرة التطرف والتنطع[1] بين المسلمين، التي تفتح للمندسين أبواب تسخير طاقات المسلمين المادية والمعنوية، لما يحقق تطلعاتهم وغاياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مستغلين عدم معرفة الكثير من المسلمين وبعض دعاتهم أيضاً لهذه الحقائق، ذات الأثر الكبير في تحديد العلاقات في إطار المنتسبين إلى الإسلام بعضهم مع بعض، وفي تحديد العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين.

ومن هنا وجب على كل داعية يتصدى للتعريف بالإسلام والدعوة إليه، أن يتعرف على هذه الحقائق؛ ليتمكن من وضع خطط الدعوة والتحرك في الوسط الذي يعمل فيه، كي لا يتشوه التصور الإسلامي في نفس المدعو حيال العلاقات العامة والخاصة داخل المجتمع الإسلامي وخارجه.

وسنجعل الكلام عن أثر التصنيف المذكور في كل من المنتسبين إلى الإسلام وغير المنتسبين إليه في مبحث مستقل لكل منهما:

---

(١) وهما كلمتان أصبح كثير من الناس يستغلونهما في توجيه الطعن للعمل الإسلامي، عامدين إلى توسيع مدلولهما ليشمل جميع الملتزمين بالإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً وأخلاقاً، فيحاربون الإسلام حقيقة تحت غطاء محاربة التطرف والتنطع والإرهاب، فلا بدّ من بيان الحقائق الشرعية لوضع الأمور في نصابها؛ للحيلولة دون التطرف ودون استغلال المتطرفين.

المبحث الأول

أثر التصنيف في دائرة المنتسبين إلى الإسلام

إن التصنيف الشرعي للمنتسبين إلى الإسلام بجعلهم ثلاثة أنواع: مسلمين ومؤمنين ومنافقين، يهدف إلى وضع ضوابط للتعامل فيما بينهم، تحفظ المؤمنين الصادقين من الإصابة بالأمراض المعنوية لدى المنحرفين في دائرة المنتسبين إلى الإسلام من عصاة وفسقة ومنافقين؛ لأن هذه الأمراض فيهم وهي العصيان والفسوق والنفاق أمراض معنوية معدية.

والدليل على تسمية هذه الانحرافات أمراضاً: قوله تعالى في المنافقين: ﴿ومن الناس من يقول آمنا با لله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون ا لله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم ا لله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾(١). وفي الفسقة قال تعالى: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض﴾(٢) .

والدليل على أنها أمراض معدية: هو أن النفس البشرية جبلت على حب الشهوات: شهوة الجاه وشهوة الجنس وشهوة المال: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾(٣). كما هي مجبولة أيضاً على اتباع الهوى. ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾(٤)، ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى

---

(١) البقرة آية ٨ ـ ١٠.

(٢) الأحزاب آية ٣٢.

(٣) آل عمران آية ١٤.

(٤) الفرقان آية ٤٣.

الأنفس﴾[1]. ومجبولة كذلك على التقليد والتعصب: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾[2]، وقالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾[3].

فهذه انحرافات في هؤلاء الناس أوقعهم فيها الشيطان بإخراجهم عن حدّ الاعتدال فيها، وهو الحكم الشرعي الذي وصفه الله تعالى بالعدل، وهو التوسط بين أمرين هما الإفراط والتفريط. كما قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾[4]. فالإفراط في الشهوات واتباع الهوى والتقليد والتعصب مرض في النفس البشرية، كما أن التفريط مرض فيها أيضاً.

فإذا انتشر الانحراف عن هدى الله تعالى في المجتمع، والناس مجبولون على حب التقليد[5]، فإن ذلك سوف يؤثر في غير المنحرفين انحرافاً مع الزمن، فينتقل هذا المرض من المصابين إلى غيرهم؛ حتى يعم المجتمع ويصبح الانحراف هو الأصل، فتنعكس المقاييس وينقلب المعروف منكراً والمنكر معروفاً عند الناس، ما لم تتم مواجهته ومحاربته قبل استفحاله فيهم.

---

(١) النجم آية ٢٣.

(٢) البقرة آية ١٧٠.

(٣) الزخرف آية ٢٣.

(٤) النحل آية ٩٠.

(٥) والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ لقمان آية ٢١. وقوله تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ الزخرف آية ٢٣. ومعنى الأمة في الآية هنا: الطريقة والأسلوب في الحياة.

التصنيف معالجة طبية وعملية جراحية في جسد الأمة الإسلامية:

ومن هنا صنف الشرع المنتسبين إلى الإسلام ليتميز الأصحّاء عن المرضى، ثم أحاط هؤلاء المرضى بأوصاف سلبية[1]، للتنفير من أعمالهم[2] لمحاصرتها فيهم، ثم السعي إلى معالجتهم منها بالعقوبات الشرعية التي هي الحدود والتعزيرات، حيث هي بمثابة العمليات الجراحية والأدوية الطبية للقضاء على أمراضهم هذه؛ كي لا تنتشر، وحين لا يكون هذا التصنيف أو حين لا يراعي المسلمون هذا التصنيف في حياتهم العملية[3] يضعف المجتمع الإسلامي كله، ويتهاوى في نهاية المطاف أمام خصومه وأعدائه تحت ثقل تلك الأمراض العقائدية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، التي انحرفت بهم عن هدى الله تعالى القويم، والتي تكون في المجتمع بمثابة السوس في الشجرة، ينخر جذعها ويضعف أغصانها، ثم لا تلبث أن تنهار عند أدنى هبة ريح تتعرض لها.

ولما كان الإيمان عمل القلب، فلا يطلع عليه إلا الله تعالى وكذا النفاق؛ لأن المنافق يبطن الكفر ويظهر الإسلام، لم يكن من حقنا نحن البشر أن نحكم على أحد بالإيمان أو بالنفاق إلا إذا ظهر من أعماله وأقواله ما يشير إلى استقرار الإيمان أو الكفر في قلبه، مع عدم الجزم بذلك لاحتمال أن يكون فعله أو قوله هذا معذوراً فيه بالخطأ أو النسيان أو الإكراه، أو أن يكون ذلك منه على جهة التمويه والتدليس، ولكننا نحكم على الناس بالإسلام؛ لأنه يتعلق بعمل الجوارح وهي ظاهرة.

من هنا كان مقدار الالتزام بأعمال الإسلام الظاهرة هو محور التعامل بين

---

(١) كوصفهم بالعصيان أو بالفسق.

(٢) لأن النفس تنفر بطبيعتها من الأوصاف السيئة، وتسعى إلى التخلص منها محافظة على الوجاهة.

(٣) فيمتدحون الفاسق ويزدرون التقي، فيتقدم الأول ويرتفع، ويتأخر الثاني ويتقوقع.

المنتسبين إلى الإسلام في الحكم عليهم بالتقوى أو العصيان أو الفسق، وينشأ عن ذلك فيهم الحقائق التالية:

الحقيقة الأولى: يشتركون في وصف الإسلام

فالمنتسبون إلى الإسلام جميعاً سواء كان ذلك عن قناعة منهم أو لم يكن، يوصفون بأنهم مسلمون، وسواء كان التزامهم به كاملاً أو جزئياً مع إيمانهم بما لم يلتزموا به.

فالذي يؤدي الواجبات والمندوبات ويجتنب المحرمات والمكروهات، يسمى مسلماً تقياً.

والذي يؤدي الواجبات لكنه يفرط بالمندوبات بصورة مستمرة، ويجتنب المحرمات، ولكنه يرتكب المكروهات بصورة مستمرة مع اعترافه بكراهتها في الشرع، يسمى مسلماً عاصياً، وتسمى تلك الأفعال صغائر.

والذي يترك بعض الوجبات دون عذر، أو يفعل بعض المحرمات دون عذر يسمى مسلماً فاسقاً، وتسمى تلك المخالفات كبائر.

فلا يزول وصف الإسلام عمن اتصف به لا بالمعصية ولا بالفسق، ما دام أن صاحبه معترف بمشروعية ما خالفه من أحكام.

ودليل ذلك ما ورد في الحديث المرفوع: «من أصاب حداً فعجل عقوبته في الدنيا، فاللّه تعالى أعدل من أن يثني على عبده العقوبة في الآخرة، ومن أصاب حداً فستره اللّه تعالى، وعفا عنه فاللّه أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه»(١).

وحين شرب رجل في عهد النبي ﷺ الخمر وجلده الحدّ، فسبه بعض من حضر

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم. وقال: صحيح على شرطهما، وأقره الذهبي وقال في «الفتح»: سنده حسن، وقال الترمذي: حسن غريب. انظر: «فيض القدير» ج٦ ص٦٦ رقم ٨٤٤٨..

obeikandi.com

قال ﷺ : «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم»[1]، فسماه أخاً، وقد كان ﷺ يأذن بالصلاة على من أقيم عليه الحد من المسلمين، كما فعل بالغامدية التي زنت، فرجمها وصلى عليها الناس[2]، واستغفروا لماعز الأسلمي[3].

فدل ذلك على أن من واقع المعصية أو الفسق، فإنه لا يخرج عن مسمى الإسلام بدليل أنه إذا عوقب به في الدنيا، فهو كفارة لإثمه، وإذا مات دون عقوبة، فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، والله تعالى لا يغفر في الآخرة لغير المسلم إذا مات على الكفر، لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[4]. فدل على أنه مسلم مع ذلك الفعل.

وإذا كان هذا هو حكم من أصاب حداً، أي كبيرة من الكبائر تستوجب الحد، فمن باب أولى أن يكون الحكم كذلك فيمن أصاب صغيرة من الصغائر!

الحقيقة الثانية: يشتركون في وصف الأخوة

فالمسلمون جميعاً: إخوة لا يفصل بينهم حواجز أصلاً، لا حواجز النسب ولا حواجز اللغة ولا حواجز اللون ولا حواجز الجنس؛ لأن رابطة، الدين فيهم أعلى وأقوى وأولى من كل رابطة، فلا تقف دونها حواجز ولا تحول دونها سدود أو حدود، كما لا تفصل بين الإخوة في الأسرة الواحدة ذات الأب الواحد والأم الواحدة اختلاف في اللون أو السن أو القدر، فجميع المسلمين أسرة واحدة منذ بدأ الإسلام وإلى قيام الساعة.

---

(١) رواه البخاري وأحمد وأبو داود. انظر: «نيل الأوطار» ج٧ ص١٣٨ رقم ٥.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الحدود باب ترديد المقر بالزنا أربع مرات، انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج٢ ص٣٧ رقم ١٠٣٩.

(٣) رواه أصحاب السنن عن جابر، انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص٧٤٩ في الحدود. رقم الحديث ٥٣٥١.

(٤) النساء آية ٤٨.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1]. وقول رسوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم»[2]، وأخوة الإسلام ليست اختيارية بل هي قسرية كأخوة النسب من حيث اللزوم وعدم الانفكاك، وهي أشد منها من حيث الحرمة والاعتبار، فرسول الله ﷺ بمنزلة الأب في الأسرة الإسلامية، وأزواجه بمثابة الأم فيها بدليل قوله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾[3]، فإذا كن أمهات المؤمنين، فهو ﷺ أب لهم، كما في قراءة ابن عباس[4]، ويكون كل من دخل في دين الله تعالى إخوة فيه بعد ذلك إلى يوم القيامة.

ومقتضى الأخوة الإسلامية، أن يحرم دمه وماله وعرضه على أخيه المسلم إلا بالحق. كما قال ﷺ : «المسلم أخو المسلم، لايظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرىء من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه»[5] .

وبالجملة فلا يجوز إيذاؤه لا بالسب ولا بالشتم ولا بالحقد ولابالكراهية ولا بالحسد، ولا بالإضرار به في بيع أو شراء أو إجارة أو إعارة أو غيبة أو نميمة أو سخرية أو همز أو لمز أو غش أو تدليس أو كذب أو خيانة، أو إيذاء مادي

---

(١) الحجرات آية ١٠.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي. انظر: «جمع الفوائد» ج٢ ص٣٥٦ رقم ٧٨٠٨.

(٣) الأحزاب آية ٦.

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» ج١٤ ص ١٢٣ عند تفسير هذه الآية، فقد قرأ: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وهذه قراءة تفسير لا قراءة ترتيل.

(٥) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة باب المسلم أخو المسلم. انظر: «مختصر» المنذري ج٢ ص٢٣٣ رقم ١٧٧٥.

بالتطاول عليه في البنيان دون إذنه، أو باغتصاب شيء من حقه في أرض، أو معنوي بالظهور بمظهر النعمة والرخاء دون إشراكه في شيء منها أو غير ذلك لما فيه من منافاة معنى الأخوة التي يريد الشرع تحققها في المؤمنين؛ لإيجاد الجسد الواحد القوي المتماسك. كما قال ﷺ : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[1] .

الحقيقة الثالثة: عدالتهم متفاوتة لتفاوت التزامهم

العدالة: هي وصف يقوم بالمسلم يحمله على فعل المأمورات، وترك المنهيات في الشرع.

والمنتسبون إلى الإسلام يتفاوتون في مقدار طاعتهم والتزامهم في أعمالهم من الصالحات والطالحات، وكلما كان أحدهم أكثر التزاماً كلما كان أقرب إلى الله تعالى، وأولى بالمغفرة والعطاء يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2].

وأما المخالفون لأمر الله تعالى منهم، فربما كانت مخالفتهم بترك بعض الواجبات أو المندوبات، أو بفعل بعض المحرمات أو المكروهات مع الاعتراف بحكمها في الشرع[3]، فهؤلاء يتفاوتون في قربهم من الله تعالى وبعدهم عنه بمقدار التزامهم بما أمر أو ارتكابهم لما نهى عنه وزجر.

وقد فصل القرآن هذه الأصناف بين المسلمين، فوصف من ارتكب منهم

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب المؤمنون كرجل واحد. انظر: «مختصر» المنذري ج٢ ص٢٣٢ رقم ١٧٧٤.

(٢) الحجرات آية ١٣.

(٣) وأما في حال إنكارها أو الاستهزاء بها وجحودها، فإنه يخرج بذلك عن دين الله ويصبح مرتداً.

بعض المحرمات أو ترك بعض الواجبات بأنه ظالم لنفسه ويسمى فاسقاً، ووصف من ارتكب المكروهات أو ترك المستحبات بصورة مستمرة بأنه مقتصد، ويسمى عاصياً[1]، ووصف من فعل الواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات بأنه سابق بالخيرات ويسمى تقياً، فقال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور* الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾[2].

فجميع المسلمين يدخلون الجنة في نهاية المطاف بعد أن يتمحص العصاة والفسقة منهم من ذنوبهم، إذا أراد الله تعالى أن يحاسبهم عليها، وإذا أراد أن يعفو عنهم أو عمن شاء منهم باعتبار ما قدم من خير، وعمل من صالحات، فذاك يعود إليه تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾[3]. وقد بين تعالى أنه لا يغفر لمن مات على الكفر أو على الشرك بالله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾[4]، ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[5].

---

(١) وقد وردت الإشارة إلى هذه التسميات في قوله تعالى: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾. وربما أطلق بعضها على بعض؛ لكنها إذا اجتمعت كان لكل منها معنى خاص. وهذا التقسيم هو أصح الأقوال في الآية، وبه يقول مقاتل. انظر: «فتح القدير» للشوكاني ج٤ ص٣٤٩.

(٢) فاطر آية ٣٢ ـ ٣٥.

(٣) آل عمران آية ١٢٩.

(٤) النساء آية ١١٦.

(٥) البقرة آية ٢١٧.

وفي الحديث عن جابر مرفوعاً: «ثنتان موجبتان، قال رجل: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار، ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة»(١). والمقصود بالدخول هنا دخول الخلود، فلا ينافي دخول بعض المسلمين النار بسبب المعصية أو الفسق، إذا أراد الله تعالى أن يحاسبهم عليها؛ لكنهم يخرجون منها إلى الجنة بعد ذلك .

الحقيقة الرابعة: معاملتهم مختلفة لاختلاف صفاتهم

المنتسبون إلى الإسلام يتفقون في الحقوق الذاتية، وهي: حق حماية الروح وحماية المال وحماية العرض، لقوله ﷺ :«المسلمون تتكافأ دماؤهم»(٢). ولقوله ﷺ أيضاً: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»(٣). فلا فرق في ذلك بين تقي وعاص وفاسق(٤) .

ولكنهم يتفاوتون في الحقوق المكتسبة بحسب التزامهم بالأحكام الشرعية،

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج١ ص٢٠ رقم ٥٢.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص٢٨ في القصاص رقم ٥٢٣٠.

(٣) رواه مسلم «في صحيحه» كتاب البر والصلة باب المسلم أخو المسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج٢ ص٢٣٣ رقم ١٧٧٥.

(٤) ومحل ذلك: ما لم يأت من الأقوال أو الأفعال ما يرفع عنه هذه الحماية، كالردة أو الزنا وهو محصن أو القتل عمداً لحديث: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة». رواه مسلم في «صحيحه» كتاب تحريم الدماء. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج٢ ص٣١ رقم ١٠٢٣ ، ولحديث: «ليّ الواجد يحل عرضه وعقوبته». رواه أبو داود والنسائي ورواه البخاري تعليقاً. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص٦٦٤ رقم ٤٧٧٠، ولحديث: «من أعطى زكاة ماله مؤتجراً فله أجرها، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا». رواه رزين عن معاذ مرفوعاً. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص٣٧٧ رقم ٢٦٨٢.

obeikandl.com

فلا يستوي التقي مع العاصي أو الفاسق، ولا يتكافآن في الوثوق بخبرهما ولا بشهادتهما، ولا في استحقاق المصاهرة ونحوها من الأحوال الشخصية.

فعلى صعيد الأخبار لا يقبل خبر الفاسق؛ إلا أن يحتف بقرائن تجبر النقص في الثقة به؛ لأنه إذا تساهل في مراعاة حق الله تعالى فخالف أمره أو ارتكب نهيه، فأولى أن يتساهل في حقوق الناس، فينقل الخبر على غير ما هو عليه لتفويت حق، أو لإيقاع شرّ بين الناس: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾(١).

ولا تقبل شهادته أيضاً للاحتمال الذي ذكرنا في خبره: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾(٢).

وعلى صعيد الأحوال الشخصية لا يستوي التقي والفاسق في النكاح لقوله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»(٣). ويقول في حق الرجل: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه، فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»(٤). وفي رواية: كبير.

وقد أمر الشرع بهذه المعاملة من أجل حصر الانحراف في أوساط

(١) الحجرات آية ٦.

(٢) النور آية ٤ ـ ٥.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص٥٧٠ في النكاح، رقم الحديث ٤٠٨٧.

(٤) رواه ابن ماجه والحاكم وصححه، والترمذي، وقال: حسن غريب. وفيه اختلاف. انظر: «فيض القدير» ج١ ص٢٤٣ رقم الحديث ٣٤٧.

المسلمين تمهيداً لإزالة أسبابه، والحيلولة دون انتشارها في الأمة لئلا تغرق في المعاصي والفسوق، حيث يؤدي بها ذلك إلى الوقوع في غضب الله تعالى وعقابه. كما قال ﷺ : «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم وقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً و لم نؤذ من فوقنا، فلو تركوهم هلكوا جميعاً وإذا أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»(١) .

وأما المنافقون الذين يظهرون أعمال الإسلام، ويبطنون الكفر به ليحفظوا أنفسهم وأموالهم وأعراضهم في المجتمع الإسلامي؛ لأنهم لا يريدون التخلي عن ديانتهم أو مبدئهم ولا بذل الجزية للمسلمين، أو ليتمكنوا من القيام بعمليات الدسّ في أوساط المسلمين، متخذين من ممارسة أعمال الإسلام ستاراً لكسب ثقة المسلمين الذين يعملون في أوساطهم، فيصبح لقولهم اعتباره ولآرائهم محلها في نفوس المسلمين، ثم يعمدون إلى التزوير والتمويه والتشكيك في السرّ، لإفساد عقيدة المسلمين أو لاقتناص أموالهم أو أعراضهم أو أرواحهم.

ولا يخلوا مجتمع من أمثال هؤلاء عبر التاريخ، حتى في عهد النبي ﷺ ، ولكن القرآن كان يتنزل في مختلف المناسبات لفضح أحوالهم وتصرفاتهم دون الإشارة إلى أسمائهم كي لا تكون فتنة، ويتخذ المنافقون ذلك سبباً في تنفير الناس عن الدين، بحجة الخوف على أنفسهم أن يتهموا بالنفاق ويعاقبوا على ذلك بأيدي المؤمنين الصادقين، كما حصل في عهد النبي ﷺ حين استأذن عمر بن

(١) رواه البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير مرفوعاً. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص٧٢٠ رقم ٥١٧٩ في الحدود.

الخطاب النبي ﷺ في ضرب عنق رجل قد ظهر نفاقه، فقال له النبي ﷺ ، وقد نهاه عن ذلك: «كيف بك لو تسامع الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

بعض أهم صفات المنافقين وأحوالهم:

ولذلك فقد اكتفى الشرع بالتحذير من أعمالهم؛ حتى لا يختلط أمرهم على الناس فيتمكنوا من الوصول إلى أهدافهم، وذلك بالإشارة إلى أفعالهم وممارساتهم في المجتمع الإسلامي، والتي من أهمها:

أولاً: يتعاطفون فيما بينهم بصورة مطلقة دون اعتبار لميزان الشرع: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾(١). فينصر بعضهم بعضاً إن بحق أو بباطل.

ثانياً: يعاندون ويغالطون الحقيقة، فيكذبون ويفترون: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ❁ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾(٢).

ويستعملون قدراتهم المعنوية في ذلك من قوة بيانية أو وجاهية سلطانية. كما قال ﷺ : «الحياء والعيّ شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»(٣) .

ثالثاً: يناقضون أمر الله تعالى ويتساهلون فيه كلما أمكنهم ذلك:

---

(١) التوبة آية ٦٧.

(٢) المنافقون آية ١ ـ ٢.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب. ثم أورد تفسير الحديث بقوله: العيّ قلة الكلام والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيوسعون في الكلام ويتفصحون فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله. اهـ. انظر: «تحفة الأحوذي» ج٦ ص١٧٤. كتاب الأدب، باب ما جاء في العيّ. رقم ٢٠٩٦.

﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾[1]، ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾[2] .

رابعاً: يخادعون الحق وأهله: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[3]، ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[4].

خامساً: لا يستقرون على حال؛ لأنهم يلهثون وراء مصالحهم دون التفات إلى المبدأ والعقيدة والأخلاق: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾[5].

سادساً: يخذلون المؤمنين: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم﴾[6]، ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ۞ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ۞ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ۞ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾[7].

---

(١) التوبة آية ٦٧.

(٢) النساء آية ١٤٢.

(٣) النساء آية ١٤٢.

(٤) البقرة آية ٩.

(٥) النساء آية ١٤٣.

(٦) الأنفال آية ٤٩.

(٧) الأحزاب آية ١٢ ـ ١٥.

﴿وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ۞ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾(١)، ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾(٢).

سابعاً: الخوف الدائم من انكشاف حالهم بين الناس لشعورهم الدائم بانحرافهم عن الحق والخير: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾(٣). كمن يخالف قانون السير، ويسمع صفارة الشرطي، فيحسب أنه هو المقصود وربما لم يره الشرطي أصلاً!

ثامناً: تقديم الدعم المادي والمعنوي للكافرين على المؤمنين كلما سنحت لهم الفرصة بذلك: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ۞ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾(٤).

تاسعاً: الكذب على الآخرين والغدر بهم وخيانتهم والإخلاف بالوعد ونقض العهد، والتطاول عليهم عند الخصومة ببهتانهم وقلب الحقائق عليهم، وإلصاق مختلف التهم فيهم تدليساً على الناس وإخفاء الحقيقة للنيل منهم، وتشويه سمعتهم، كما قال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر،

---

(١) آل عمران آية ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) النساء آية ٦١.

(٣) المنافقون آية ٤.

(٤) النساء آية ١٣٨ ـ ١٣٩.

وإذا خاصم فجر»[1]. وفي رواية: «وإذا وعد أخلف»[2].

ومن هنا كان الترهيب من أن يقال للمنافق الذي ظهر نفاقه بارتكابه خصال النفاق سيداً، فقال ﷺ : «لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل»[3] .

ونظراً لدورهم الخطير في الأمة الذي يستغلون فيه انتسابهم للإسلام للتمويه عن حقيقتهم وتزويرها، فقد توعدهم الله تعالى بنار جنهم يوم القيامة: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾[4]، ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾[5].

وجوب الحذر من المنافقين:

لذلك فإن المنافقين أعداء للمؤمنين، إلا أنهم يتلونون بلون المجتمع الإسلامي الذي يعيشون فيه، بممارسة شعائره لإخفاء ما في قلوبهم من كفر وحقد على المسلمين: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم﴾[6].

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي. انظر: «جمع الفوائد» ج٢ ص٤٠١ كتاب النفاق والمزاح والمراء رقم ٨٠٩٥.

(٢) نفس المصدر.

(٣) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح، ورواه الحاكم بلفظ: «إذا قال الرجل للمنافق يا سيد، فقد أغضب ربه»، وقال الحاكم: صحيح الإسناد. نظر: «الترغيب والترهيب» ج٣ ص٥٧٩ رقم١.

(٤) النساء آية ١٤٠.

(٥) النساء آية ١٤٥.

(٦) المنافقون آية٤.

فوجب أخذ الحيطة والحذر منهم في السرّ، وعدم إسناد المهام العليا والمؤثرة والخطيرة إليهم في المجتمع، حتى لا يتمكنوا من الإضرار بالمسلمين من خلالها، وحتى لا يعطلوا هذه المواقع عن القيام بدورها في حماية الأمة وصيانتها، ولهذا لم يسند النبي ﷺ للمنافقين مواقع ذات تأثير أصلاً، وكذا فعل أصحابه من بعده رضوان الله عليهم.

بالمحبة والتعاون بين المؤمنين يندحر المنافقون:

وسعياً من الشرع في تكتيل أهل الحق، وتقوية الروابط بينهم لنبذ المنحرفين وإضعافهم، حتى يقلعوا عن موجبات معصيتهم وفسقهم، فقد أوجب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله والتزاور في الله والعطاء في الله والمنع في الله؛ ليشعر المنحرفون عن أمر الله تعالى بالغربة في المجتمع المسلم والضيق المادي والمعنوي، فيحملهم ذلك على ترك أعمالهم بسبب ما يتعرضون له من ضغوط أدبية ومادية.

ولهذا قال ﷺ : «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»(١). وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى يوم القيامة: «أين المتحابون لجلالي، اليوم أُظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»(٢). وفي الحديث عن النبي ﷺ : «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها عليه؟ قال: لا. غير أني أحببته في الله عز

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص١٨ خصال الإيمان رقم ٧١.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة، باب في المتحابين في الله. انظر: «مختصر مسلم» ج٢ ص٢٣١ رقم ١٧٦٨.

وجل. قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»(١)، وفي الحديث أيضاً: «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

فمقاطعة الفاسقين والمفسدين المنحرفين في المجتمع الإسلامي أسلوب فعّال في معالجتهم للحدّ من آثار أعمالهم وأخطار تصرفاتهم.

ومحل هذه المقاطعة: هو ما إذا كان الملتزمون في المجتمع المسلم هم الأكثر أو الأقوى، وإلا بأن كانوا الأقل والأضعف فإن النظر يعود إلى مدى تحقق المصلحة في المقاطعة والاعتزال أو الخلطة والمعايشة، مع التنبيه والتحذير والتذكير بوجوب المحافظة على النفس من متابعة المنحرفين، والتأثر بهم في كل حال.

وليس ذلك الأسلوب في التعامل مع المنحرفين ناشئاً عن حقد عليهم أو انتقام منهم، وإنما هو صادر عن الرأفة بهم لحملهم على الإقلاع عما هم فيه من انحراف، وإعانة لهم على شياطينهم من الجن والإنس لإعادتهم إلى اللحاق بركب الإيمان والالتزام بما شرع الله تعالى؛ ليفوزوا بالعزّة في الدنيا والجنة في الآخرة(٣)، كما يفعل الطبيب بالمريض يصف له الدواء المرّ، ويجري له العملية الجراحية، ويعزله عن الأصحاء عند اللزوم لمعالجته وتقويمه.

ويندرج كل ذلك في إطار الأخوة والمحبة الإسلامية التي يأمر الله تعالى المؤمنين بها، ليصبحوا بها جسداً واحداً قوياً صحيحاً وسليماً، يحسّ بعضه

---

(١) نفس المصدر. رقم الحديث ١٧٦٩.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس مرفوعاً. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص١٧ في خصال الإيمان رقم الحديث ٧٠.

(٣) روى البخاري وأبو داود عن أبي هريرة: أنه بعد أن جلد رجل في عهد النبي ﷺ حد السكر، وقال له بعض من حضر: أخزاك الله. قال رسول الله ﷺ : «لا تقولوا هكذا لا تعينوا عليه الشيطان، ولكن قولوا: اللهم ارحمه، اللهم تب عليه» اهـ. انظر: «جمع الفوائد» ج١ ص٧٦٤ رقم ٥٤٥٤.

obeikandi.com

بأحاسيس بعض وآلام بعض وآمال بعض: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(١) .

ولهذا شرعت الحدود والقصاص والتعزيرات بين المسلمين لنزع أسباب المرض من الجسد الإسلامي، والإبقاء عليه سليماً معافىً قوياً في مواجهته للكفر وأهله الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾(٢).

الحقيقة الخامسة: ولاؤهم واحد: لله ولرسوله وللمؤمنين(٣)

المنتسبون إلى الإسلام يجمعهم الولاء للإسلام أفراداً وجماعات، فيصهرهم في كيان واحد؛ لتصبح الأفراد فيه بمثابة اللبنات، وتصبح الجماعات فيه بمثابة الأعمدة، لينشأ من ذلك بناء متماسك وقوي يحفظ من يلوذ به من الأخطار، ويدفع عنهم الأعداء الطامعين فيهم من شتى الأنحاء والأقطار، كما قال ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»(٤) .

كما يصهرهم الإسلام أيضاً بعضهم في بعض، أفراداً وجماعات ليشكل منهم الجسد الإسلامي الواحد، فتكون الأفراد فيه بمنزلة الخلايا في البدن، وتكون الجماعات فيه بمنزلة الأجهزة المختلفة ـ كجهاز السمع والبصر، والشم والذوق،

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب البر والصلة، باب: المؤمنون كرجل واحد. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج٢ ص٢٣٢ رقم ١٧٧٤.

(٢) البقرة آية ٢١٧.

(٣) والولاء معناه: المحبة والمناصرة بين المتجانسين في المعتقد.

(٤) رواه البخاري والنسائي والترمذي وابن ماجه. انظر: «فيض القدير» ج٦ ص٢٥٢ ـ رقم ٩١٤٣.

والتنفس والهضم والتفكير والدم ... إلخ ـ ثم تنشد الأفراد فيه والجماعات بعضها إلى بعض لتشكل الكيان الإسلامي الكبير، الذي ترتبط القمة فيه بالقاعدة ارتباط الرأس بالبدن لتدب فيه الحياة، ويشعر بعضه بآلام بعض وبآمال بعض بحكم وحدة الولاء فيما بينها على صعيد العلاقة مع الله تعالى وعلى صعيد العلاقة فيما بينها، كوحدة بشرية متجانسة في المعتقد، كما قال ﷺ : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[١].

ومن هنا منع الله تعالى تعديد الولاء في المؤمنين به سواء بالشرك به تعالى، أو بتعديد القيادة الأولى منهم؛لأن ذلك يؤدي إلى نشوء الحواجز المعنوية فيما بينهم، التي تمنع شعور بعضهم بمشاعر بعض وأحاسيس بعض، مما يحوّل المجتمع الإسلامي إلى كيانات متناحرة متنازعة ينتهي بها ذلك إلى الضعف الذي يغري بها عدوها المتخالف معها في المعتقد، فقال تعالى موجباً وحدة الولاء فيما بين المؤمنين قمة وقاعدة: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾[٢]، ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾[٣].

وفي الحديث: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»[٤]، «من جاءكم وأمركم جميع يريد شق عصاكم، فاضربوا عنقه كائناً من كان»[٥] .

---

(١) رواه مسلم في باب الأدب ورواه أحمد عن النعمان بن بشير. انظر: «فيض القدير» ج٥ ص٥١٤ رقم ٨١٥٥.

(٢) التوبة آية ٧١.

(٣) المائدة آية ٥٥.

(٤) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة باب إذا بويع لخليفتين. انظر: «مختصر مسلم» ج٢ ص٨٧ رقم ١٢٠٠.

(٥) رواه مسلم ج١٢ ص٢٤١ كتاب الإمارة بلفظ: «من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان».

فهم بمثابة الأسرة الواحـدة لها أب واحـد مهمـا تعـددت أجناسـهم ولغـاتهم وأوطانهم، كما عبر عن ذلك شاعر الإسلام حسان بن ثابت رضي ا لله عنه بقوله:

أبـي الإسـلام لا أب لي سـواه   إذا افتخـروا بقيـس أو تميـم

وبهذا تتطابق سنة ا لله تعالى الكونية التي بموجبهـا خلـق الإنسـان وجعلـه جسداً ورأساً، فلا تستقر الحياة في الجسد بلا رأس، كما لا تستقر فيه بأكثر مـن رأس، مع سنة ا لله تعالى الشرعية التي بموجبها يوجد المجتمـع الإسـلامي بقاعدتـه المتماسكة بعضها مع بعض وبرئيسه الواحد المتصل بهـا اتصـال الـرأس بالجسـد، والمهيمن عليها بمساعديه هيمنة الجهاز العصبي على كل خلية وجهـاز في البـدن، والراعي لشؤونها بمستشاريه رعاية العقل للجسم كله.

فالمسلمون إذن يشتركون في وصف الإسلام، ويشتركون في وصـف الأخـوة رغم اختلاف عدالتهم التي يترتب عليها اختلاف التعامل بينهم؛ لأنهم يشـتركون في الولاء لله تعالى ولرسوله ﷺ والمؤمنين بحكم انتسابهم إلى الإسلام.

المبحث الثاني

أثر التصنيف في دائرة غير المنتسين إلى الإسلام

بعد أن تبين لنا أثر التصنيف في دائـرة المنتسـبين إلى الإسـلام للتعرف إلى كيفية التعامل فيمـا بينهـم لإغـلاق الأبـواب علـى شـياطين الجـن والإنـس، فـلا يدخلون عليهم أسباب الضعف والهزيمة بتضليلهم عـن الحقـائق الشـرعية الثابتـة، نـورد أثـر التصنيـف البشـري في المنظـور الإسـلامي في دائـرة غـير المنتسـبين إلى الإسلام، للوقوف على كيفية التعامل بين الفريقين بـلا وكـس ولا شـطط، كـي نصل إلى العدل الذي يأمر الله تعالى به، والذي بـه قـامت السـماوات والأرض، وبه تقوم المجتمعات البشرية وبدونه تنهار، فينتشر فيهـا الفسـاد والظلـم بمختلـف الصور والأساليب.

ويتبين أثر ذلك من خلال الحقائق التالية فيهم:

الحقيقة الأولى: يشتركون في وصف الكفر

غير المنتسبين إلى الإسلام جميعاً، يشتركون في وصف الكفر في التصور الإسلامي.

فاليهود كافرون: ﴿فبما نقضهـم ميثـاقهم وكفرهـم بآيـات الله وقتلهـم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فـلا يؤمنـون إلا قليلاً ۞ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾(١).

والنصارى كافرون: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾(٢).

---

(١) النساء آية ١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) المائدة آية ١٧.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾(١).

والمجوس كافرون: لأنهم أثبتوا للكون خالقين أحدهما للنور، والآخر للظلمة: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون ۞ وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون ۞ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضرّ فإليه تجأرون ۞ ثم إذا كشف الضرّ عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ۞ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾(٢).

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾(٣). فإذا لم يكونوا مؤمنين فهم كافرون، لأن العطف في الآية هنا يقتضي المغايرة.

والمشركون كافرون: لأنهم بشركهم أبطلوا أعمالهم أياً كان نوعها وقدرها؛ لأن الشرك يبطل الإيمان والعمل: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً﴾(٤)، ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾(٥)، ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم

(١) المائدة آية ٧٣.

(٢) النحل آية ٥١ ـ ٥٥.

(٣) الحج آية ١٧.

(٤) النساء آية ٤٨.

(٥) النساء آية ١١٦.

obeikandl.com

خالدون﴾(1)، ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾(2).

والملحدون كافرون: لأنهم أنكروا وجود الله تعالى أصلاً، ومن باب أولى إذن أن ينكروا النبوات والعوالم الغيبية كالملائكة والجن واليوم الآخر والجنة والنار وما إلى ذلك من عقائد؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بما يقع تحت حواسهم، ويدخل مختبراتهم: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾(3) .

فالكفر وصف مشترك بينهم، إلا أن أسماءهم مختلفة؛ لأنهم متفاوتون فيه.

الحقيقة الثانية: يشتركون في بطلان أعمالهم عند الله تعالى

أعمال غير المنتسبين إلى الإسلام باطلة عند الله تعالى، إذا ماتوا على ذلك لقوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾(4)، ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾(5)، ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾(6)، ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾، أي: الذي

---

(1) التوبة آية ١٧.

(2) الزمر آية ٦٥.

(3) النساء آية ١٣٦.

(4) النور آية ٣٩.

(5) إبراهيم آية ١٨.

(6) الفرقان آية ٢٣.

جاء به محمد ﷺ، ﴿فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[1].
والدليل على تخصيصه بالإيمان بمحمد ﷺ، ما ورد في الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2].

فلا ينفع العمل عند الله تعالى يوم القيامة بدون الإيمان بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ لقوله تعالى: ﴿والعصر ۞ إن الإنسان لفي خسر ۞ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[3]. فالخسارة شاملة لجميع البشر، والنجاة خاصة بالمؤمنين منهم.

شروط قبول العمل عند الله تعالى:

فلا بدّ من توفر شروط ثلاثة لقبول العمل عند الله تعالى:

الشرط الأول: الإيمان، فمن لم يؤمن بالله تعالى وبرسوله محمد ﷺ، فإن عمله مهما كان صالحاً ونافعاً للناس في الدنيا، لا ينفعه عند الله تعالى في الآخرة، وإن كان الله تعالى يعطيه على ذلك في الدنيا بأن يوسع له في الرزق وينعم عليه في العطاء، ففي الحديث: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»[4]. وهذا أبو طالب

(١) المائدة آية ٥.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الإيمان باب: الإيمان بالله والاستقامة. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج١ ص١٣ رقم ٢٠.

(٣) العصر آية ١ ـ ٣.

(٤) رواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج١ ص٢١ كتاب الإيمان. رقم الحديث ٦٠.

obeikandl.com

عم رسول الله ﷺ لم يكن دفاعه عن النبي ﷺ لينفعه يوم القيامة؛ لأنه مات على الكفر.

الشرط الثاني: الإخلاص، بأن يكون العمل مقصوداً به وجه الله تعالى دون غيره لا انفراداً ولا اشتراكاً؛ لأن الله تعالى لا يقبل الشركة بحال. كما قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾(١). وفي الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(٢). وقال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾(٣) .

الشرط الثالث: المطابقة لما جاء به محمد ﷺ ، لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾(٤)، ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾(٥)، ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾(٦). وفي الحديث: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(٧).

---

(١) النساء آية ٤٨.

(٢) رواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري كتاب الزهد والرقائق. باب: من أشرك في عمله غير الله تعالى. ج٢ ص٣١٥ رقم الحديث ٢٠٨٩.

(٣) البينة آية ٥.

(٤) الحشر آية ٧.

(٥) النور آية ٥٤.

(٦) النور آية ٦٣.

(٧) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه عن عائشة مرفوعاً. انظر: «كشف الخفاء» ج٢ ص٣١٠ رقم ٢٣٥٨.

obeikandl.com

فصح أن أعمال الكافرين كلها باطلة يوم القيامة عند الله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾[1]. وفي الحديث: «لا يقبل إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان»[2].

الحقيقة الثالثة: يشتركون في وصف العداء للمؤمنين

الكافرون على اختلاف أصنافهم وبلا استثناء أعداء للمؤمنين، كما أخبر علاّم الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور في قوله تعالى: ﴿إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾[3]، لما بين الطرفين من تناقض في المعتقد واختلاف فيه.

وقد بلغ من عداوتهم أنهم يترصدون بالمؤمنين ساعات الغفلة، أو الضعف ليفتكوا بهم كلما أمكنهم ذلك: ﴿ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾[4].

ولذلك أمر الله تعالى بالحذر منهم:﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم﴾[5]. ونهى عن اتخاذهم بطانة في الحكم بالاعتماد عليهم، واستشارتهم وتمكينهم من الأعمال ذات الخطر والشأن خشية أن يغشوا أو يغدروا أو يخونوا: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يَأْلُونَكُمْ خبالاً ودوا ما عنتم

---

(١) الفرقان آية ٢٣.

(٢) رواه الطبراني في «معجمه الكبير» قال الهيثمي: فيه سعد بن زكريا، اختلف في ثقته وجرحه. انظر: «مجمع الزوائد» ج١ ص٣٥ كتاب الإيمان.

(٣) النساء آية ١٠١.

(٤) النساء آية ١٠٢.

(٥) النساء آية ٧١.

قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ۞ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ۞ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾(١).

﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ۞ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ۞ لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾(٢)، ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾(٣).

فوجب أخذ الحذر والحيطة منهم كي لا يقع المؤمنون فريسة كيدهم في حال التعامل معهم وهم غافلون عن حقيقتهم.

الحقيقة الرابعة: عداواتهم متفاوتة

هؤلاء الكفار متفاوتون في عدائهم للمسلمين، فاليهود والمشركون ومن باب أولى الملحدون أشد عداء للمؤمنين من النصارى على اختلاف مذاهبهم. كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾(٤) .

---

(١) آل عمران آية ١١٨ ـ ١٢٠.

(٢) التوبة آية ٨ ـ ١٠.

(٣) هود آية ١١٣.

(٤) المائدة آية ٨٢.

وهذه صفة ما تزال موجودة فيهم بشكل عام، وإن تفاوتت من مكان لآخر ومن زمن لآخر، وهي تتناولهم في الجملة، لكن ذلك لا يمنع من أن يكون ثمة أفراد أو فئات من النصارى أشدّ عداء للمسلمين من اليهود والمشركين[1]، كما أنه لا يمنع من أن يكون ثمة أفراد أو فئات من اليهود والمشركين[2] أقرب مودة للمسلمين من النصارى، والحكم في الآية إنما هو للأعم الأغلب فيهم.

ولا يبعد أن يكون وراء المتشددين في عدائهم للمسلمين من النصارى يهود أو مشركون قاموا بدسهم، أو بصياغتهم صياغة يهودية أو مشركة من خلال برامج تربوية وتعليمية خاصة؛ للقيام بأدوار معينة في الوسط النصراني ضد المسلمين، كما حصل في الحروب الصليبية لتوسيع الشقة بين الطرفين؛ كي لا يلتقيا على العداء لليهود والمشركين، ولهذا وصفهم الله تعالى في فاتحة الكتاب بأنهم ضالون ووصف اليهود بأنهم مغضوب عليهم، وذلك لغلبة السذاجة على النصارى في الجملة، وغلبة المكر والكيد على اليهود في الجملة أيضاً.

وهذا ما يفسر اختراق اليهود للنصرانية بواسطة شاؤول اليهودي الذي تسمى بعد أن أظهر النصرانية ببولس، ليألفه ويثق به النصارى ثم دسّ عليهم العقائد التي أفسدت صفاء النصرانية وتعاليمها التي جاء بها المسيح عليه السلام، كتعددية صفة المسيح (لا هوتية وناسوتية) والتثليث والصلب والفداء ونحو ذلك من العقائد الخاطئة، ثم توارث النصارى هذه التعاليم حتى يومنا هذا وهم يتعصبون لها كما لو نطق بها المسيح عليه السلام.

والأعجب من ذلك أن يقوم العالم الغربي بدعم إسرائيل رغم أنهم يدعون

---

(١) كالباباوات والسياسيين والعسكريين الذين يقودون الحملات الصليبية ضد المسلمين في الماضي والحاضر.

(٢) كأبي طالب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ .

أن اليهود هم الذين قتلوا المسيح عليه السلام(١)، وقد استطاع اليهود بمكرهم أن ينتزعوا من البابا في روما (بولس السادس) السابق صك براءة لليهود من دم المسيح.

وهذا يدل على سذاجة البابا ومكر اليهود، أو على سذاجة النصارى بعامة إذ أوصل اليهود إلى أعلى منصب ديني لهم واحداً من أنفسهم ليواصل مسيرة التضليل والكيد وتعميق الشقة والعداء بين الإسلام والنصرانية؛ لتحقيق غايات سياسية وأطماع اقتصادية.

وقد قام عبد الله بن سبأ اليهودي بدور مماثل في الإسلام لا زال المسلمون يعانون من آثاره حتى الآن، حيث ادّعى في علي بن أبي طالب رضي الله عنه تعددية الصفة (لاهوتية وناسوتية) وادعى له الوصاية والرجعة والعصمة، ولكن الله تعالى أحبط مسعاه بالمخلصين من علماء الأمة.

ثم النصارى في داخل دائرة النصرانية تتفاوت طوائفهم في عدائها للمسلمين، إلا أن أغلب هذه الطوائف تبقى كراهيتها أقل من عداء اليهود في الجملة.

وفي دائرة اليهودية تتفاوت طوائفهم في العداء أيضاً للمسلمين، إلا أن أقل هذه الطوائف كراهية للمسلمين هي أشد عداء للمسلمين من أغلب طوائف النصارى.

وفي دائرة المشركين تتفاوت طوائفهم أيضاً في العداء للمسلمين إلا أن أقل طوائفهم عداء هي أشد من أغلب طوائف النصارى.

وأما الملحدون فإنهم من باب أولى يوصفون بما وصف به اليهود والمشركون.

ويأتي التفاوت في عدواتهم للمسلمين تبعاً لشدة كفرهم، حيث كلما كان كفرهم أشد كلما كانت عدواتهم للمسلمين أكبر، ولاعتقادهم أن الإسلام

(١) وقد يكون ذلك من باب القول الشائع: (عدو عدوي صديقي) وهو منطق السياسة المصلحية اللادينية.

يهدف إلى القضاء على وجودهم كلما أمكنه ذلك لما يحملونه من كفر وضلال، وفاتهم أن الطبيب عدو للمرض وليس للمريض، فالإسلام يهدف إلى تطهيرهم من ذلك الكفر وليس إلى القضاء عليهم في ذواتهم. كما قال تعالى:﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ۞ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾(١) .

فالكافرون وإن اشتركوا في أصل العداء للمؤمنين إلا أن عدواتهم متفاوتة. كما أخبر علام الغيوب الذي: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾(٢)، ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾(٣)، ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه ا لله ويعلم ما في السموات وما في الأرض وا لله على كل شيء قدير﴾(٤).

فلا يجوز إغفال هذه الحقيقة أثناء التعامل معهم، كما لا يجوز إلغاؤها عند مسالمتهم؛ لأن الحقائق لا تمحوها العبارات ولا تلغيها الشعارات، ومن ظن ذلك فقد ضل الطريق الصحيح وعرض نفسه للخطر: ﴿تلك حدود ا لله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود ا لله فأولئك هم الظالمون﴾(٥) .

---

(١) التوبة آية ١١ ـ ١٢.

(٢) غافر آية ١٩.

(٣) ق آية ١٦.

(٤) آل عمران آية ٢٩.

(٥) البقرة آية ٢٢٩.

الحقيقة الخامسة: جواز التحالف مع بعض أصنافهم

العداء بين المؤمنين والكافرين، لا يمنع من التحالف مع بعض أنواع الكافرين، وهم أهل الأديان السماوية من غير المسلمين، وخاصة مع النصارى لما بين الأديان السماوية من القرابة الدينية، وذلك فيما إذ ألجأت الظروف المسلمين إلى التحالف العسكري أو السياسي لدفع خطر مشترك، فيجب أن يختاروا الأقل خطراً لدفع الخطر الأعظم.

ولا يشمل هذا الحكم المشركين ولا الملحدين، فإنهم أغراب على مجتمع الأديان السماوية، ولهذا لم يحالف النبي ﷺ ولم يهادن المشركين في مكة بينما هادن اليهود وعقد اتفاقية دفاع مشترك معهم في المدينة، مع أنه كان أشد حاجة إليه وهو في مكة منه وهو في المدينة، ولما لم يكن في مكة قوى ذات تأثير على أرض الواقع غير زعامة المشركين، عمد إلى الاستفادة من قانون الجوار المعمول به بينهم، فدخل لدى عودته من الطائف في جوار المطعم بن عدي، ولم يتحالف بمن معه من المؤمنين مع من لم يضطهده من المشركين، لكنه في المدينة تحالف مع اليهود لدفع خطر عداء قومه له يوم الخندق، حين أحدقوا بالمدينة قاصدين استئصاله ومن معه من المؤمنين فيها، رضوان الله عليهم جميعاً.

وهذه هي الحكمة من تولي الله تعالى تصنيف الكفار من حيث العداء للمؤمنين على نحو ما ذكرناه، ولم يدع الله تعالى معرفة عداء الكافرين إلى احتهاد المسلمين؛ لأنه لا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلا الله تعالى الذي خلقها: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾(١)، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف

(١) النساء آية ٤٥.

الخبير﴾(١)، ﴿والله عليم بذات الصدور﴾(٢) .

ولما كان الوحي روحاً معنوية للعنصر البشري. كما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾(٣)، ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾(٤)، فإن المشركين والملحدين لم ينالوا من هذه الروح شيئاً، وبالتالي يتحولون إلى أموات في المعنى كما وصف الله تعالى الكافر بآيات الله تعالى بالموت ووصف المؤمن بها بالحياة، فقال تعالى:﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾(٥). كما وصف المشركين وكذا الملحدين بأنهم: ﴿أموات غير أحياء﴾(٦) .

فهؤلاء بفقدانهم الإيمان بالرسالات السماوية أصلاً يكونون قد أشبهوا الأموات، الذين لا تلبث الروائح الكريهة أن تنتشر في الأجواء من جثثهم، فتفسد على الناس أجواءهم الإيمانية، وتشكل خطراً على حياتهم، فكان لابد وأن يتحالف أهل الإيمان على اختلاف أديانهم(٧) للتخلص من وجودهم،

(١) الملك آية ١٤.

(٢) آل عمران آية ١٥٤.

(٣) النحل آية ٢.

(٤) الشورى آية ٥٢.

(٥) الأنعام آية ١٢٢.

(٦) النحل آية ٢١.

(٧) أما إسرائيل فلا نتحالف معها من حيث الأصل؛ لأنها دولة مغتصبة لأرض فلسطين، فلا نعترف بكيانها، وليس لها عند المسلمين إلا السيف الذي يجتثها من الوجود، الذي أخبرنا عنه النبي ﷺ بقوله: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي ورائي، تعال فاقتله، فيقتله.» رواه مسلم. انظر: «مختصر مسلم» للمنذري ج٢ ص٢٩٥. كتاب الفتن. رقم الحديث ٢٠٢٥.

والسعي إلى دفنهم مع مبادئهم ما داموا عليها في باطن الأرض، وذلك بحكم ما بين أهل الأديان السماوية من اشتراك في أصل الإيمان با لله تعالى وباليوم الآخر وبالنبوات، بغض النظر عن اختلافهم في تفاصيل ذلك؛ لأن بعضهم أقرب إلى بعض من المشركين والملحدين.

ولا يعني ذلك مجاملة أبناء الأديان الأخرى على حساب الحق الذي جاء به الإسلام وإنما هو مهادنة وليست مداهنة[1]؛ لأن المهادنة تعني: تأخير المواجهة إلى أن تحين الظروف الأنسب، وأما المداهنة فتعني: التنازل عن بعض الحق إرضاء لأهل الباطل، وذاك لا يصح، وهو الذي كان يسعى إليه المشركون في عهد النبي ﷺ : ﴿ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾[2]، ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً ۞ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾[3].

الحقيقة السادسة: تحريم موالاتهم

لكن جواز التحالف معهم لا يؤدي إلى جواز الموالاة لهم، فإن التحالف يعني: التعاون بين شخصين أو جماعتين أو دولتين مختلفتين في المبدأ والمعتقد، لدفع خطر مشترك سياسي أو عسكري، مع إبقاء كل من الطرفين على كيانه قمة وقاعدة.

وأما الولاء، فيعني: انصهار المتوالين بعضهم مع بعض في كيان واحد ليشكل الجميع جسداً واحداً متجانساً بسبب الوحدة العقائدية والتشريعية والسلوكية والمصيرية بينهم، ولهذا: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء

---

(١) المجاملة: تنازل على حساب الذات، والمداهنة: تنازلٌ على حساب المبدأ.

(٢) القلم آية ٩.

(٣) الإسراء آية ٧٣ ـ ٧٤.

بعض﴾(١)، ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾(٢).

وحتى لايتعرض المجتمع المسلم لضعضعة كيانه بدخول عناصر غريبة عليه من الكيانات الأخرى تضعف تماسكه وقوته، أو تهدم كيانه فيما إذا تسنم مركز القرار فيه من ليس ينتمي إلى عقيدة الأمة ودينها؛ لأنه يكون عندئذ بمثابة السمّ يسري في البدن لا يلبث أن يضعفه ثم يقتله، وحتى لا تذهب طاقة أبناء المجتمع المسلم المادية والمعنوية لمصلحة المجتمعات الأخرى، فتقوى بها على المجتمع الإسلامي تحت أي ظرف؛ منع الله تعالى من الموالاة بين المؤمنين والكافرين وحذر منه لما يؤدي إليه من الفتنة والخطر على الأمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾(٣)، ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾(٤)، ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾(٥)، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾(٦).

---

(١) التوبة آية ٧١.

(٢) المائدة آية ٥٥.

(٣) النساء آية ١٤٤.

(٤) الأنفال آية ٧٣.

(٥) آل عمران آية ٢٨.

(٦) المائدة آية ٥١.

obeikandi.com

الحقيقة السابعة: وجوب العدل فيهم وتحريم ظلمهم

تحريم الولاء للكافرين لا يمنع من وجوب العدل بينهم؛ حتى وإن كانت الخصومة بينهم وبين المؤمنين قائمة: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لاتعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[1]، ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً﴾[2]، ﴿وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم﴾[3]، ﴿فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾[4]، ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[5].

الحقيقة الثامنة: مشروعية البرّ بهم والإحسان إليهم

ولم يقف الإسلام عند حدّ العدل بينهم بأن يعطوا ما لهم من حق فقط، بل أذن بالبرّ بهم والإحسان إليهم؛ لأن ذلك يؤثر في سلّ سخائم الصدور، وتنظيفها من الحقد والكراهية والعداوة: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾[6]، ﴿لاينهاكم الله عن الذين لم

(١) المائدة آية ٨.

(٢) النساء آية ٥٨.

(٣) الشورى آية ١٥.

(٤) المائدة آية ٤٢.

(٥) النساء آية ١٣٥.

(٦) فصلت آية ٣٤ ـ ٣٥.

obeikandl.com

يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[1].

هذا إذا كان الكافرون من عامة الناس، ومن باب أولى أن يحسن إليهم إذا كانوا من ذوي قرابته النسبية: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[2] .

الحقيقة التاسعة: المنع من اتخاذهم بطانة

ولكن البر بهم والإحسان إليهم لا يحمل على جعلهم بطانة وموالجين في مراكز القرار في المجتمع المسلم[3]، خشية أن يستغلوا مواقعهم للإضرار بالمسلمين: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾[4].

ولهذا حرم الله تعالى محبتهم ومودتهم؛ لئلا يؤدي ذلك إلى الاطمئنان إليهم والثقة بأقوالهم وأحوالهم، فيتخذون من ذلك مدخلاً إلى التأثير على قرار الأمة السياسي أو العسكري أو الاجتماعي أو الاقتصادي: ﴿لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو

(١) الممتحنة آية ٨ ـ ٩.

(٢) لقمان آية ١٥.

(٣) وأما في المجتمعات ذات الحكم المشترك كلبنان فالأمر فيه مختلف.

(٤) آل عمران آية ١١٨.

إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾(١)، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ۞ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ۞ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير﴾(٢).

الحقيقة العاشرة: معاداة المحاربين منهم وأئمة الضلال فيهم

إن عدم محبتهم حالة سلبية لا تعني الحقد عليهم وكراهيتهم ومعاداتهم إلا الذين ظلموا منهم، بأن يعلنوا الحرب الفكرية أو المادية فيقابل الظالمون منهم بالمثل؛ حتى يقلعوا عن ظلمهم: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾(٣)، ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾(٤)، ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ۞ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾(٥)، ﴿ولا

(١) المجادلة آية ٢٢.

(٢) الممتحنة آية ١ ـ ٣.

(٣) النساء آية ١٤٨.

(٤) البقرة آية ١٩٤.

(٥) الشورى آية ٤١ ـ ٤٢.

تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾[1].

والحكمة في عدم جواز الحقد عليهم ومعاداتهم جملة هي: أن يبقى باب التوبة مفتوحاً ليرجعوا إلى الحق؛ لأن مبادلة الحقد بالحقد يؤدي إلى ترسيخ الكراهية والعداء بين الطرفين، والمطلوب من المسلم أن يكون بتعامله الحسن قريباً من القلوب لتنفتح لما عنده من الحق: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ بأن يهديهم إلى الإسلام: ﴿والله قدير والله غفور رحيم﴾[2]، ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[3]، ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾[4].

وأما من شنّ من الكافرين الحرب العقائدية أو العسكرية على المسلمين، فإنه يجب استحضار عداوة الظالمين منهم ليكون ذلك حافزاً للمسلمين على خوض المعركة ضدهم، أو استنفار الطاقات الفكرية والمادية لإحراز النصر عليهم، وليكون ذلك أيضاً حافظاً للمسلمين من الانخداع بأقوالهم أو أفعالهم أو مواقفهم الطارئة التي يقصدون بها التمويه عن حقيقة حالهم، فإن من طبيعة النفس البشرية أن تطمئن لمن تأمنه.

ومن هنا كانت الدعوة إلى مواجهة أئمة الكفر المواجهة الفكرية

---

(١) العنكبوت آية ٤٦.

(٢) الممتحنة آية ٧.

(٣) فصلت آية ٣٤.

(٤) لقمان آية ١٥.

والعسكرية: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾(١)، لأنهم هم الذين يحركون العامة من الناس ضد الحق وأهلـه، مستخدمين في ذلـك نفوذهـم المادي والأدبي على الناس للحفاظ على مصالحهم بحجة الدفاع عن حقوق الأمة في أنفسها وأموالها وأعراضها، كما قال فرعون الذي تأله على الناس واستعبدهم لنفسه: ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾(٢).

وقال عن موسى وهارون حين دعـواه إلى الله تعـالى، مموهـاً علـى النـاس حقيقة الدافع له على رفض دعوتهما، وهو الخوف على ملك مصر أن يزول عنه إلى غـيره: ﴿إن هـذان لسـاحران يريـدان أن يخرجـاكم مـن أرضكـم بسـحرهما ويذهبـا بطريقتكـم المثلـى﴾(٣)، فقلـب الحقيقـة في أعـين العامـة تمويهـاً وتزويـراً ليكونوا معه ضد موسى وأخيه.

وأما العامة من الكافرين فلا يعادى منهم إلا من استجاب لأئمة الكفر، لدفـع خطره عن الأمة؛ لأنهم أصبحوا باستجابتهم لأئمة الكفر أداة إيـذاء لأهـل الإيمـان لا يتفادى خطرها إلا بتدميرها، ويد شرّ على المسلمين لا يتقى بأسها إلاّ بقطعها.

حال المسلم مع الكافرين قمة وقاعدة من حيث المحبة والكراهية:

إن حـال المسـلم فيهـا مـع الكـافرين كحـال لسـان الميزان مـع الكفتـين: ﴿وكذلك جعلناكم أمـة وسـطاً لتكونـوا شـهداء علـى النـاس ويكـون الرسـول عليكم شهيداً﴾(٤)، ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾(٥) :

---

(١) التوبة آية ١٢.

(٢) القصص آية ٣٨.

(٣) طه آية ٦٣.

(٤) البقرة آية ١٤٣.

(٥) الرحمن آية ٩.

obeikandl.com

الحالة الأولى: سلبية

وذلك فيما إذا لم يكن منهم مواجهة، ولا تحد لله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين، فلا يحبهم لقيام وصف الكفر فيهم ولا يحقد عليهم إذا لم يبسطوا أيديهم وألسنتهم بالسوء للإسلام وأهله، بل إنه ليقسط إليهم ويبرهم. كما قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾(١)، تأليفاً لقلوبهم وتقريباً لهم من الحق وأهله.

الحالة الثانية: إيجابية في الخير

وذلك فيما إذا دخلوا في الإسلام، حيث تترجح كفة محبتهم؛ لأنهم صاروا بذلك جزءاً من المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾(٢).

الحالة الثالثة: إيجابية في الشر

وذلك فيما إذا لجّوا في الكفر وحاربوا أهل الإيمان حرباً عقائدية أو عسكرية، حيث تترجّح كفة عداوتهم وبغضهم وكراهيتهم: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾(٣)، ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾(٤).

---

(١) الممتحنة آية ٨.

(٢) التوبة آية ١١.

(٣) التوبة آية ١٢.

(٤) المجادلة آية ٢٢.

أمثلة تطبيقية:

وفي تاريخ الأنبياء وأتباعهم صور كثيرة نذكر منها:

أولاً: معاملة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه، فإنه دعاهم وحاورهم وتودد إلى أبيه، فوعده بالاستغفار له وما زال به يدعوه ويرفق به، حتى أعلن أبوه عن عداوته له، وأعلن الحرب عليه، فكف عن التودد له وهجره وعاداه وتبرأ منه: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ۞ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ۞ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ۞ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ۞ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ۞ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً ۞ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً﴾(1).

وفعلاً فقد استغفر له بعد ذلك فقال: ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾(2)، وما كان ذلك إلا وفاء من إبراهيم بالوعد الذي قطعه على نفسه لأبيه في أن يستغفر له طمعاً منه في أن يغفر الله له ويهديه، لكنه حين رأى منه الإصرار على الكفر وإعلان الحرب على أهل الإيمان تبرأ منه وحاربه في الله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾(3).

ولهذا دعا الله تعالى المؤمنين للاقتداء بإبراهيم في التعامل مع أهليهم

---

(1) مريم آية ٤١ ـ ٤٧.

(2) الشعراء آية ٨٦.

(3) التوبة آية ١١٤.

وقومهم؛ لأن في هذا التعامل على هذه الصورة حفظاً للإيمان وأهله من خطر الكفر وأهله فقال تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾(١)، لأن الحقد عليهم وكراهيتهم ابتداءً يحملهم على النفور من سماع كلمة الحق ثم العمل بها، ومحبتهم لا تجوز لما هم عليه من وصف الكفر فلم يبق إلا التوقف عن محبتهم وعن الحقد عليهم، حتى يتخذوا أحد الأمرين: إما الإيمان أو محاربة أهله، فيتقرر عندئذ محبتهم أو كراهيتهم: ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾(٢).

ثانياً: معاملة النبي ﷺ لعمه أبي طالب الذي أرخى بظله الزعامي على محمد ﷺ، يمنع عنه أيدي من عاداه وحاربوه من الأهل والعشيرة، كأبي جهل وأبي لهب وأضرابهما، فلما حضرته الوفاة و لم ينطق بالشهادتين ومات على الكفر قال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك»، فنزل قول الله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾(٣).

ثالثاً: معاملة أصحابه لأهليهم بأمر منه ﷺ، كما فعلت أم حبيبة حين

---

(١) الممتحنة آية ٤ ـ ٥.

(٢) الممتحنة آية ٥ ـ ٦.

(٣) التوبة آية ١١٣.

obeikandi.com

جاءها أبوها أبو سفيان بن حرب إلى المدينة، ليكلم رسول الله ﷺ بشأن نقض قريش لعهد الحديبية بينها وبينه، حين ساندت قريش بني بكر في عدوانها على بني خزاعة حليفة رسول الله ﷺ ، حيث منعته من الجلوس على فراش النبي ﷺ ، حتى أذن لها بذلك رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ لأنه جاء يطلب العفو والصفح عما بدر من قريش، و لم يأت محارباً ومعادياً: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾[1]، فسالمه رسول الله ﷺ بصفته الفردية، وإن كان القرار قد تم اتخاذه ضد المشركين بصفتهم الجماعية، حيث عزم رسول الله عليه الصلاة والسلام على فتح مكة ونزع السلطة من أيدي قريش التي لا ترعى عهداً ولا ذمة؛ لأنها ليست أهلاً للتعامل الإنساني العالي مع الخصوم، لما جبل عليه الظالمون من أهل الكفر من النكران والحقد والعدوان عند المقدرة على القيم الإنسانية والأخلاق العالية لشعورهم الدائم بالنقص تجاه أهل الإيمان الذين زين الإيمان قلوبهم، ورفع قدرهم في أعين العدو والصديق، ولذلك فإن الكافرين: ﴿لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة﴾[2]، لشعورهم في الواقع وحقيقة الأمر باستعلاء الإيمان وأهله عليهم، كما أخبر تعالى مقرراً هذه الحقيقة: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[3] .

لذلك فإن أكابر المجرمين من الكفار يعمدون إلى الانتقام من أهل الإيمان والعدوان عليهم للتشفي منهم وتفريغ أحقادهم فيهم، مستغلين غفلة العامة من الكافرين حيث يموهون عليهم الحقائق، فيصورون المؤمنين في أعينهم أعداء

---

(١) الأنفال آية ٦١.

(٢) التوبة آية ١٠.

(٣) آل عمران آية ١٣٩.

obeikandl.com

حاقدين يستهدفون وجودهم ومصالحهم، كما أخبر تعالى عن تمويه فرعون على قومه ليحملهم على معاداة موسى عليه السلام ومحاربته، حيث وجه التهمة إلى موسى بقوله: ﴿أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾(١)، فرددت حاشيته تلك التهمة والخدع بها الناس فقالوا: ﴿إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾(٢)، فساقهم لمحاربة الخير وأهله بذلك التمويه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾(٣)، فكان بذلك سبباً في هلاكهم في الدنيا بالغرق، وفي الآخرة بالنار: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود﴾(٤)، وأكابر المجرمين حين يموهون الحقائق على قومهم، فإنما يهدفون إلى استغلال سواعدهم وعقولهم ضد المؤمنين، لتحقيق النصر عليهم حفاظاً على مواقعهم الاجتماعية في الواقع وحقيقة الأمر. كما اعترف بذلك فرعون صريحاً حين قال: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾(٥)، أي: إن الأمر والنهي يجب أن ينتهي إليه وحده دون شريك.

ولهذا وجب تسديد السهام المادية والمعنوية ضد أكابر المجرمين وأئمة الكفر ما أمكن، فإذا حال دون مواجهة أولئك المخدوعين فلا حرج من أن ينالهم ما ينال أئمتهم إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد قال تعالى في أئمة الكفر: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾(٦)، وقال

---

(١) طه آية ٥٧.

(٢) طه آية ٦٣.

(٣) الزخرف آية ٥٤.

(٤) هود آية ٩٨.

(٥) القصص آية ٣٨.

(٦) التوبة آية ١٢.

تعالى في المحاربين من عامتهم: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾[1].

ولابدّ من ضبط النفس في المعركة بين الإيمان والكفر بالالتزام بهذه الأحكام الشرعية في شأنهم، حتى لا ينقلب الصراع ضد المؤمنين؛ لأن حركتهم فيه إنما هي لنصرة دين الله تعالى، فيجب عليهم الالتزام بتوجيه الله تعالى لهم في هذه المواجهة، وإلا كانوا عاملين لمصالحهم الخاصة سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو غير ذلك تحت شعار الاسلام ونصرة المسلمين، والله تعالى لا يخدعه أحد.

الحقيقة الحادية عشرة: يختص أهل الكتاب منهم بأحكام

ولما كان عدم محبة الكافرين بسبب كفرهم لا تستلزم الحقد عليهم والكراهية لهم من حيث الأصل، فقد شرع الإسلام لأبنائه أحكاماً تحدد العلاقة بين المسلمين والكافرين من خلال تصنيفهم إلى أهل أديان سماوية وأهل مذاهب أرضية، فخص أهل الأديان السماوية فيهم بأحكام، منها:

أولاً: جواز نكاح نسائهم

﴿والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾[2]، مع تحريم تزويج رجالهم من نساء المؤمنين: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هنّ حل لهم ولا هم يحلون لهنّ﴾[3].

---

(١) التوبة آية ٣٦.

(٢) المائدة آية ٥.

(٣) الممتحنة آية ١٠.

ثانياً: جواز أكل ذبائحهم

﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾[1]، والمقصود بالطعام في الآية هنا خصوص الذبائح كما هو رأي أكثر أهل العلم[2] ، فهو من العام الذي أريد به الخاص.

ثالثاً: جواز عقد الذمة لهم

﴿قاتلوا الذين لايؤمنون با لله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم ا لله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[3].

فالغاية من قتال أهل الكتاب عند القدرة عليه أن يؤمنوا، أو يعطوا الجزية فإن فعلوا أحد هذين الأمرين وجب الكف عنهم.

الحقيقة الثانية عشرة: يختص المشركون والملحدون منهم بأحكام

إن جواز عقد الذمة لأهل الكتاب وجواز نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم لا يشمل المشركين ولا الملحدين؛ لأنهم بإشراكهم وإلحادهم قد قطعوا أي صلة لهم با لله تعالى: ﴿ومن يشرك با لله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[4]، ثم وصلوا علاقتهم بالشيطان الذي هو عدو لله تعالى وملائكته ورسله والمؤمنين، فجعل الشيطان يقود أولياءه هؤلاء إلى معاداة ا لله تعالى ورسوله والمؤمنين: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾[5]،

---

(١) المائدة آية ٥.

(٢) انظر «تفسير القرطبي» ج٦ ص٧٦ المسألة الثانية.

(٣) التوبة آية ٢٩.

(٤) الحج آية ٣١.

(٥) الزخرف آية ٣٦.

obeikandl.com

﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾(١)، لأنه: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾(٢)، وبحكم عداوته لبني آدم جميعاً، فإنه يسعى لتسليط أوليائه على أهل الإيمان ليقود الجميع إلى نار جهنم يوم القيامة: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾(٣).

ولذلك فإنه ليس للمشركين والملحدين عند المسلمين إلا الإسلام أو السيف حين يكون للمسلمين سلطان ودولة، فلا يقرّ المشركون ولا الملحدون على اعتقاداتهم ولا تقبل منهم الجزية وإن بذلوها: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾(٤).

---

(١) النساء آية ٣٨.

(٢) النساء آية ١٢٠.

(٣) فاطر آية ٦.

(٤) التوبة آية ١ ـ ٧.

ثم بين تعالى مقدار ما تكنه قلوبهم من حقد دفين وشرّ عظيم، ينتظرون الوقت المناسب الذي يتمكنون فيه من إنزال أسوأ وأشنع المعاملة بالمسلمين، من نهب للمال وانتهاك للأعراض وسفك للدماء فقال: ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون*اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾(١) .

فيختص المشركون والملحدون إذن بأحكام:

أولاً: تحريم نكاح نسائهم حتى يؤمنّ

﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾(٢)، كما لا يجوز للمؤمنات أن ينكحن رجال الكفرة مطلقاً سواء كانوا من أهل الأديان السماوية أو من أهل المذاهب الأرضية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هنّ حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾(٣).

ثانياً: تحريم أكل ذبائحهم

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعمتموهم إنكم لمشركون﴾(٤).

---

(١) التوبة آية ٨ ـ ١١.

(٢) البقرة آية ٢٢١.

(٣) الممتحنة آية ١٠.

(٤) الأنعام آية ١٢١.

ثالثاً: وجوب قتالهم عند القدرة

على ذلك حتى بلوغ الغاية من قتالهم وهي الإيمان أو الإبادة، ولا ثالث لهذين الخيارين: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾[1]، ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾[2].

رابعاً: لا يجوز عقد الذمة لهم

بحال وإنما تعقد لهم معاهدة الهدنة في حال العجز عن قتالهم لظروف طارئة؛ لأن المراد تطهير الأرض من دنس كفرهم: ﴿إنما المشركون نجس﴾[3]. فلا يجوز عقد الأمان لهم غير محدود بمدة؛ لأن ذلك مخالف لوجوب قتالهم حتى الإيمان أو الإبادة: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾[4].

وأما المجوس فيمتازون عن المشركين من جهة جواز عقد الذمة لهم، ولكنهم يشاركونهم في تحريم أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم، للحديث: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»[5].

تعليل وبيان:

وإنما كان هذا الاختلاف في الأحكام بين المشركين وأهل الكتاب بناء على مراعاة أصل القرابة الدينية بين أهل الأديان السماوية، حيث أصولها متحدة لكونها

(١) التوبة آية ٥.

(٢) التوبة آية ٣٦.

(٣) التوبة آية ٢٨.

(٤) الصف آية ٩.

(٥) رواه البزار في مسنده، وأشار ابن حجر إلى أن أصله في البخاري. انظر: «الدراية» ج٢ ص١٣٤ رقم ٧٣٩.

صادرة عن الله تعالى خالق الإنسان، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه القرابة في قوله: «نحن ـ معاشر الأنبياء ـ إخوة لعلّات أبونا واحد»، إشارة إلى الاتفاق في أصول الأديان وعقائدها «وأمهاتنا شتى»[1]، إشارة إلى الاختلاف في الشرائع والأحكام.

ولذلك فإنه يجب مراعاة هذه الأحكام والحقائق في العلاقات الدولية والجماعية والفردية بين المسلمين وغيرهم من الناس؛ لأن الذي شرعها إنما هو خالق الإنسان، والعالم بما تكنه نفوس البشر من محبة وكراهية، والعالم بمدى استعداد الأصناف البشرية للتعاون فيما بينها، فمن استند في بناء علاقاته مع الآخرين على هذه الحقائق والأحكام أمن على نفسه من الاستغلال بكل أبعاده من أولئك الغير؛ لأن للإنسان قدرة كبيرة على التلون والتغير والتستر على ما يخفيه في نفسه من نوايا عدوانية ضد الآخرين، فيقع من يتعامل معه ـ بناء على ما يسمع أو يرى من ظاهره دون مراعاة للضوابط الشرعية في هذا التعامل ـ فريسة ذلك التلون والنفاق لدى الخصوم: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾[2]، ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾[3]، ﴿يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾[4].

الحقيقة الثالثة عشرة: العلاقة التجارية معهم

وأما العلاقات التجارية البحتة، فلم يرد في النصوص الشرعية ما يمنع منها، وهي خاضعة في ذلك لمراعاة المصلحة الإسلامية العليا التي يحددها الحاكم

---

(١) الحديث رواه مسلم ج٤ ص١٤٥ عن أبي هريرة مرفوعاً ولفظه: «أنا أولى بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» اهـ.

(٢) آل عمران آية ١١٨.

(٣) آل عمران آية ١٦٧.

(٤) التوبة آية ٨.

المسلم، مع محاولة الاستغناء عنهم ما أمكن؛ كي لا يتخذوا من حاجة المسلمين إليهم وسيلة ضغط سياسي أو عقائدي بحكم العداوة الكامنة في صدور الكافرين أحياناً، والظاهرة فيهم أحياناً أخرى، والتي تؤدي إلى نشوب الصراع بين الطرفين في مختلف الصور والأساليب.

الحقيقة الرابعة عشرة: وجوب دعوتهم

إن عدم كراهية الكافرين أو الحقد عليهم في الجملة من حيث الأصل، يراد منه إبقاء قلوبهم منفتحة لسماع دعوة الحق التي جاء بها محمد ﷺ، التي يجب على المسلمين العاملين بأحكام الشرع وحكمه وكيفية مخاطبة الآخرين، أن يقوموا بتبليغها لتصل كلمة الله تعالى إلى الآخرين، لتنقذ من شاء الله تعالى منهم من الضلال والنار إلى الهدى والجنة: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾(١)، ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾(٢)، ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(٣).

وفي حال دعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله ﷺ، فإنه إذا اعترضت ذلك حواجز مادية أو معنوية لمنع إيصال الدعوة إلى الآخرين، فيجب كسر هذه الحواجز بكل وسيلة بما فيها الوسيلة العسكرية، وإذا تعذرت هذه الوسيلة فلا يجوز أن تتوقف دعوة الناس إلى الإسلام حيثما وكلما أمكن بالأسلوب المؤثر المدروس، لإنقاذ البشرية من الآلام النفسية والاجتماعية التي جعلت تصيبها وتنهال

(١) الأعراف آية ١٥٨.

(٢) التوبة آية ٣٣.

(٣) آل عمران آية ١١٠.

obeikandi.com

عليها، بسبب الشرود عن وحي السماء الذي حمل الرحمة إلى أهل الأرض، الذين وجد الشيطان فيهم صيداً سهلاً ليبعدهم عما يدفع عنهم كيده وشره : ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾(١). وسينشب في سبيل ذلك صراع فكري مع أئمة الكفر وأكابر المجرمين في الأرض الذين سيجندون جميع طاقاتهم لهذه المعركة.

وإذا خاض المسلمون هذا الصراع بالحكمة والموعظة الحسنة معتمدين في تنفيذ مراحله وخطواته على الكتاب والسنة، فإن الغلبة كائنة لهم بإذن الله تعالى:﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾(٢). الأعلون بالحجة والبرهان والأعلون بالسلاح والسنان، فإذا فات أحدهما بقي الآخر. والاكتشافات العلمية المعاصرة، تقود إلينا في كل يوم أدلة مادية صارخة على توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، تتحول إلى سلاح معنوي لرسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ ، لا تقل في فعاليتها عن السلاح المادي، بل إنها لأشد وقعاً على قلوب أكابر المجرمين من رمي الدبابات وقصف الطائرات ودوي المدافع.

---

(١) الفرقان آية ٢٩.

(٢) آل عمران آية ١٣٩.